حكايات مبتورة

قصص

تأليف

مصطفى البلكي

طبعة ٢٠١٩

البلكي، مصطفى

حكايات مبتورة: قصص/مصطفى البلكي؛ - الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٨ .

١٨٤ ص، ٢٠ سم

تدمك: ٥ ٧٢٠ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية القصيرة

أ- العنوان

٨١٣,٠١

حكايات مبتورة

قصص

تأليف

مصطفى البلكي

أطلس للنشر والانتاج الاعلامي ش.م.م.

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٨/٢٢٨٣٠

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٧٢٠-٥

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٩

الكتاب : حكايات مبتورة

المؤلف : مصطفى البلكي

الغلاف : أحمد الصباغ

لوحة الغلاف: إهداء من الفنان: وليد الحديدي

الناشر: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكـــس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

إهداء

إلى .....

جدتي

أمي

زوجتي

صاحب العلّة

الناس منحته أسماء عدة، وكل لقب ارتبط بشيء يخصه، فمثلاً قالوا إنه صاحب الجراب، والجراب هذا لم يكن يغادره، دائمًا يعلقه في كتفه، وقالوا الغُرَبِي لأنه لا جذور معروفة له، أما الشباب فقالوا عنه طالب ثأر أو مطلوب إليه، وعدد قليل من الطاعنين في السن الذين يقضون جل وقتهم في قتل الوقت بلعب السيجة، أو اجترار الماضي، قالوا عنه: صاحب عِلَّة، وحينما سألوا عنها قالوا: العشق.

وأنا أقول بعد كل ما جَرى لي، هو إنسان، فأسوأ شيء - أكرمكم اللّه - في الحياة إطلاق المسميات كي نسجن شخصا ما في زاوية قد لا تروق له.

أول مرة رأيته فيها، كنت قادمًا من المدرسة، كنتُ صغيرًا، وكنت شغوفًا باستكشاف كل شيء، يومها رأيت جمعًا من الناس يتحلقون حول رجل، كان من السهل اختراق الحلقة، باستخدام الحيلة تارة، وتارة أخرى باستخدام ميزة الجسد الصغير، فلما وجدتُ في الصفوف الأولى، رأيت رجلاً نحيلاً يفترش الأرض، لحيته أكثر شيء يميزه، كانت مشذبة، وسوداء الشعر كأنها الليل،

وعلى وجهه مسحة من وقار، كنت أراه على وجوه موظفي الدولة، والأعيان وشيخ الجامع، ووالدي حينما نجلس يوم الخميس حول الطبلية لتناول المرق واللحم.

وبفعل التدافع وجدت نفسي، متقهقرًا للخلف، فلما وصلتني من أحد المتابعين له جملة:

– من أخذ منه ندم ومن لم يأخذ ندم.

بمنطق الصبي الصغير تساءلت:

– أي شيء يعطيه؟

وكأني وقتها كنت أضيق الواسع قبل أن أنصت له.

حكى الرجل عن امرأة أحبها ثلاثة رجال، كل واحد منهم بذل الغالي والنفيس من أجل الفوز بها، وفي النهاية احتال أحدهم لينالها، فأخبر الاثنين بأمر كنز في بيت عتيق في آخر مدينة تغرب عندها الشمس، وقبل أن يمضيا قال لهما، من لا يجرؤ لا يستحق. سأله أحدهما:

– وأنت؟

– أنا لا شيء يربطني بالبشر، لذلك سأبقى هنا لأتعلم كيف أحافظ على نفسي.

قالا له:

- وهي؟

- لست مستعدًا أن أهدم العِشرة من أجل امرأة.

فارقا المكان، وكل واحد منهما راح يغذي جذوته حتى لا يضعف ويقتله اليأس قبل أن يبلغ غايته، ووقت أن فارقا المكان كانا على قناعة بأنهما سيصلان إلى هدفهما قبل أن يطلع عليهما نهار اليوم الثاني، وحينما وصلا انشغل كل واحد في غزل مكيدة للآخر، وفي نهاية اليوم نجح أحدهما وقضى على رفيقه، الذي لفظ أنفاسه وهو يقول:

- سأخبر الله عنك.

تركه للجوارح، ودخل المدينة، وراح يبحث عن البناية التي وصفها ثالثهم، فلما مضت الأيام تسرب اليأس إلى روحه، فقرر العودة، في طريقه وجد ملابس صديقه معلقة على شجرة، ولم يجد جثمانه، فجلس وبكى، ونام بجوار الشجرة الوحيدة، وحينما استيقظ، وجد حوله الكثير من الأشجار، وعددًا من الأغنام يسوقها صاحبها، فسأله عن الجبل، فقال له الرجل:

- زرع من قبل الناس.

فـأدرك أنـه نـام طويـلاً، وربمـا مـات، وهـا هـو يبعـث مـن جديـد، فأخبـر الرجـل بمـا حـدث، فضحـك، وقـال لـه:

- خدعك الثالث.

فغـادره وهـو يضمـر السـوء، ومـا هـو إلا يـوم وفي الثانـي وصـل إلـى البلـد الـذي تـرك فيـه المـرأة، فلـم يجدهمـا، فسـأل أحـد المقيمـين عنهـا وعـن ثالثهـم، فقـال لـه:

- تزوجا.

حـزن طويـلاً، وقـاوم السـقوط طويـلاً، ولـم يـرد الاعتـراف بالخديعـة، لأنـه كان كل يـوم يصنـع مـن تفاصيـل الحيـاة شـابًا، يحملـه الطمـوح، وحينمـا يتعـب، يولـد اليـأس بداخلـه، فنشـب الصـراع الطبيعـي بـين الطمـوح واليـأس، ولأنهـا معركـة، وفي المعـارك دائمـا هنـاك المنتصـر والمهـزوم، وهـذا لـم يحـدث معـه، فشـملته الكآبـة سـرعان مـا قتلتـه، فتجمـع أهـل البلـد، وتكفلـوا بدفنـه، وجميعهـم يحمـل السـؤال الـذي ظـل في دواخلهـم:

"لو وجدت غريمك ماذا أنت فاعل به؟"

هـذا السـؤال ظـل يراودنـي، كلمـا مـررتُ علـى الرجـل الـذي اسـتوطن البلـدة بحكايتـه، وبنـى لـه خُصًـا في أطرافهـا، وتـزوج مـن إحـدى نسـاء البلـدة، اسـتولدها عـددًا غيـر معـروف مـن العيـال

والبنـات، ودخلتُ خصـه كمُعَلَّم لأولاده، وأصبحـت أكثـر النـاس إيمانـا بـأن الرجـل يعـرف حقيقتـه الماكـرة، وفي اللحظـة التـي تعصبـت فيهـا لمعتقـدي، أصبحـت أتابـع الرجـل، وهـو يغـادر كل صبـاح خصـه، يحمـل جرابا بـه طعـام يومـه، وبعـض العشـب تميمـة لـذوي الأمـراض الذيـن يشـكون إليـه علتهـم، وكانـت هنـاك رؤيـة أعلـى مـن وعيـي، كنـت أظنهـا مـع الرجـل، فتركـتُ عملـي، وبسـبب الارتبـاك ذات مـرة، تعثـرت قدمـي في حجـر ملقـى في الطريـق، انتبـه لمراقبتـي لـه، وكشـف لـي نفسـه، وأخبرنـي بـأن أكـف عـن ملاحقتـه، ولمـا لمـس إصـراري، قـال لـي بنبـرة حازمـة:

- أنا مثلك أبحث عن الحقيقة، فاحذرني.

ارتبكتُ، وقـررتُ أن أعـود لحياتـي، وأن أمـارس الكراهيـة الخفيـة للرجـل، ولا أجاهـر بهـا بـين أهـل البلـدة الذيـن تعلقـوا بـه، وفي نفـس الوقـت أكـون متربصًـا بـه وأتجنـب الاختـلاط بـكل جمـع يكـون بينهـم، وسـرعان مـا غـادرتُ المـتن وأصبحـتُ هامشـيًا أمـارس فعـل المراقبـة، وفي اللحظـة التـي أشـعر فيهـا بأنـي أملـك طاقـة تعيدنـي للتفكيـر كنـت أهـرب فأشـرد، فأدمنـت الجلـوس وحـدي، أعيـد ترتيـب حكايـة الرجـل، وحينمـا أصابنـي اليـأس، رأيـت الكـون كلـه يختفـي، ونظـرت ذات لحظـة فلـم أجـد إلا ظلـي، وحاولـت تجـاوزه، فلـم أسـتطع، فرضيـت بـه رفيقًـا، فكبـر الطمـوح داخلـي، كونـي رأيـت آخـر يشـاركني

المكان، وسرعان ما نشب الخلاف بين اليأس والطموح، وتعودتُ على مراقبة تلك المعركة، وأصبحتِ الحياة متربصة بالموت، وقبل أن يستوى الظل طال الخلاف وامتدتِ المعركة بلا مهزوم أو غالب، فمتُ من طول السهر وتم دفني في مقابر الصدقة، فمر عليّ صاحب الجراب، وقال لمن أنهوا بناء القبر:

- كلنا هذا الرجل

●●●

يخرج عاريا

والجسد مسجى، حاول الشيخ أن يضع قطنة صغيرة في فم المتوفي، كانت يده تهتز وتسقط منها، فسألته:

- لماذا إصرارك دائما على وضع تلك القطنة؟.

نظر إليّ وقال:

- لأخنق آخر صرخة كان يتمنى أن يطلقها بعد أن مات.

ظهرت علامات التعجب على وجهي، فترك ما في يده، وسألني:

- هل رأيته وهو يموت؟.

- لا.

- هل كان أحد بجواره؟.

- يقولون بأن ابنه كان إلى جواره

- أحضر لي ذلك الولد.

تحركتُ في اتجاه الباب الموصد، أدرتُ المقبض، فتدفقت الهمهمات إلى الداخل، انقبض وجه الشيخ، فما كان مني إلا أن

ضيقت الجزء الموارب، ورددت اسم الابن، شق لنفسه طريقا من بين الجموع المنتظرة، ومر من الفتحة التي أتيحت له، ولما اقترب من جسد والده المسجى على النعش، دمعت عيناه، ربت الشيخ على كتفه، فكفكف دموعه، وتلقى السؤال:

- كنت معه وهو يموت؟.

- نعم.

- أين كان؟.

- كنت أراجع معه حسابات أرضه والزريبة، وما دفعه سكان عمارته.

- وماذا فعل؟.

- وضع يده على قلبه، وتألم فجأة.

- أدرك أنه يواجه الموت؟.

- كان يفكر في صباح هذا اليوم في شراء أرض جارنا.

ابتسم الشيخ، وسأله:

- كنتما هنا؟.

- كان يجلس خلف مكتبه.

أشـار إلـى مكتـب صغيـر في ركـن الغرفـة، فوقـه صـورة للراحـل في أيام شبابه، تغيـر لـون الإطـار، وبهتـت الكثيـر مـن الملامـح بتحولهـا إلـى اللـون الأصفـر، وأخبـره أن كـوب المـاء الـذي أحضـره حفيـده لـه لـم يرتشـف منـه أي شـيء، وأنـه نظـر إلـى الجـدار المقابـل لـه، ومـات ونظراتـه معلقـة عليـه.

- أى جدار؟.

سأل الشيخ، فأشار الابن:

- هناك.

نظـر الشـيخ حيث أشـار الابـن، فوجـد جدارًا تقشـر عنـه الطلاء، بـه الكثيـر مـن الصـور الملصقـة بالعجـين، كلهـا عبـارة عـن صـور نزعـت مـن جرائـد أو مجـلات، وجميعهـا لمشـاهير رحلـوا عـن الدنيـا، بعدمـا كانـوا مـلء السـمع والبصـر، عايـن الجـدار جيـدًا، وسـأله:

- أتكلم؟.

- نعم.

- ماذا قال؟.

- سألني.. لم أنا لم أكن إنسانًا كما يجب؟.

- جاوبته؟.

- استدعيت تاريخه وسكت.

وبات مؤكدا للشيخ أن الابن لا حاجة لنا في وجوده، فصرفه.

نظر الشيخ إلى الغرفة، وجد الكثير من المقاعد متناثرة فيها، طلب مني أن أجمعها وأجعلها فوق بعضها، وحينما استفسرت عن السبب قال إن روح الرجل تائهة تقتلها الحيرة من الوحدة التي تغشاها .

نفذت ما طلب مني، وبعدها، عاد وأمرني أن أنزع كل الصور التي على الجدار الذي عانقه الميت، رضخت، وبينما أنهي مهمتي، تمنيت ألا تكون هناك عداوة بين المتوفى وبين أصحابها، أكد الشيخ ما ذهبت إليه، وطالبني بالعودة لصب الماء على الجسد حتى يقوم بآخر خطوة قبل أن يلفه في كفنه، وعاد لوضع القطنة في فمه، فشعر بجسده كله يهتز، وفم الرجل يفتح، وتعم فوضى عارمة في المكان، وتتبعثر كل قطع الكفن، لمحتُ الرجفة وهي تملك أوصال الشيخ، فتقدمتُ منه، واحتويتُ جسده بذراعيّ، وقلت له:

– أنت معتاد على ما يحدث.

سكت، فتابعت:

– بداخلك الأسرار

نظر إليّ، وقال:

- الآن خفت.

وانحرف بعينيه إلى المتوفى، وخاطبه:

- سأترك فمك، ولنرَ ماذا سوف يحدث.

وغادر الغرفة بعد انتهاء المهمة، وعندما وصل إلى بيته، أمر أولاده ألا يزعجوه، فنام وهو يتخيل نفسه جوال تبن يطفو فوق سطح الماء تلتقطه يد صائد سمك يرى فيه عائقًا فيقرر أن يبقر بطنه ويخلص من التبن الذي به، مع أول ضربة سكين في الجوال، يستيقظ فزعًا، وهو ينظر حوله، عيناه زائغتان، وفمه جاف، يتذكر الجدار بصوره، والغرفه بمقاعدها، فيولى وجهه شطر الفضاء ويخرج عاريا والصرخة تسبقه.

●●●

قسوة

مـر العديـد مـن السـنوات، ورغـم أنـه فقـد الكثيـر مـن ألـوان الحيـاة، هنـاك دائمـا ذكـرى واحـدة تعـود بقـوة، يتذكرهـا، ويتذكـر معهـا ذلـك القـط الـذي وضعتـه أمـه في كيـس صغيـر، كان يعـرف أنـه سـوف يذهـب بـه بعيـدًا، هـذا المكان كان يتجنـب السـؤال عنـه، وكان يعـرف أنـه لا يسـتطيع تحمـل عـبء الابتعـاد أكثـر، لذلـك راح يطـوف في شـوارع القريـة العامـرة بالنـاس، ومـن تلـك الجـولات أحـب البيـوت، ولأن الحـب نتـاج منفعـة خاصـة، كبـر هـذا الشـغف، وكانـت جولتـه دائمـا تنتهـي أمـام أحـد البيـوت القديمـة، ليتـرك فيهـا مـا كان يحملـه، في تلـك المـرة وبعـد تعـب وصـل إلـى البيـت الكبيـر، كمـا يطلقـون عليـه في قريتهـم، وقـف أمـام سـوره، وبداخلـه كل القصـص التـي تراكمـت علـى مـر الأيـام، ومعهـا كل العنـاد الـذي كان يجيـده، ضاربًـا عـرض الحائـط بـكل التحذيـرات خصوصـا تلـك النصيحـة التـي زرعهـا الكبـار فيـه، إذا كان هنـاك خطـر مـا ابتعـد، تخيـل كل القصـص وهـو يفتـح الكيـس ليتـرك القـط وسـط هـذا السـكون بعدمـا أصبـح داخـل حديقـة البيـت التـي وصـل إليهـا مـن جـزء وطـيء مـن السـور.

تراجع وهو يحمل الكثير من الحزن، كان لا يريد أن يعود إلى البيت، حتى لا يطلب منه أن يقص ما حدث، وحتى لا يرى الفرحة في عيونهم، وليهرب من قسوته ومن تلك النظرات التي لمحها في عينيّ القط.

بعد أن أفلته من الكيس، ظل القط حائرًا، ينظر حوله في ذعر، ثم شاهده يتقدم نحوه، لمس قدميه كما كان يفعل، ورأى حيرته، ولم يجد أي رغبة أخرى في النظر إليه، خوفًا من التعاطف الذي تنقله العيون وقت تعلقها بعينين تريان الخراب، وتشاهد أبطال الحكايات وهم يتحركون بين الأشجار التي تحيط بالبيت الكبير، خاف، فتجاوز السور، وبقي خارجه، يراقبه، كان الحد الأدني المتاح له، متابعته، فيراه وهو يتحرك بعيدًا ليختفي بين الأشجار قصيرة القامة، ويبدو أنه كان ثملاً ؛ بسبب ما حدث له، فعاد مرة أخرى، اندفع بقوة الحياة، راح يحاول اعتلاء السور، بأن ينشب مخالبه في لحمه، فيرتفع، وسرعان ما يعود ليهوي، ألمه ما رأى، استدار ومضى وهو يتعثر في جلباب الجرم الذي ارتكبه، لم يكن في استطاعته العودة للبيت، تجول على غير هدى في شواع القرية، حتى هده التعب، فقرر العودة للبيت، دخله متسللاً، أغلق باب غرفته جيدًا، وغرق في ظلام شديد، لحظات وعاودته قسوته، رأى وجه القط، ولأن كل شيء مهما كان فظيعا،

يمكن للمرء أن يبطئ من الشعور به، استطاع أن يبعد نظراته، لكن ما قدر على التخلص من تلك الكلمة التي ظلت تتراءى له، بدأت تتجمع بهدوء حتى تكونت فقرأها :أنقذني.

تحرك في الظلام، أخذ يدور في دائرة والعيون المفزوعة تدور معه، تمنى أن يخفف من وطأة ما بداخله، كما كانت تقول أمه، حينما تراه مخنوقًا: البكاء فرج ربك لك، طلب الفرج، فلما لم يأت، قال لنفسه إن الأمر كان خدعة، ولم يحدث بالكيفية التى مرت أمامه، وهي مجرد أضغاث أحلام، أو بقايا حكايات قديمة لم تبددها الأيام، حاول، وفشل، وفي النهاية انهار، وكان كقوقعة، تذكر الطائرة الورقية التي فقدها ذات يوم، جاءت إليه في العتمة، تخيلها تحلق، سمع قول جدته وهي تهدئ من روعه، يومها قالت له: هي في الجنة الآن، بكى، وتخيل الجنة، والقط فيها، فعاد إلى الرقص حول نفسه، وعينه تراقب حلقة ذكر، وبعد أن هده التعب، سقط، وهو يحدق في الفراغ.

●●●

كائن ليلي

مضت السنوات وكلما غادرتني سنة، كنت أفقد جزءًا من ذاكرتي، ذلك الجزء الخراب، كان يسبب لي ألمًا، وكان يحرمني من النوم ، فتحولت لكائن ليلي أغادر البيت بعد العشاء، فعرفني الساهرون وكذلك كل أولاد الليل، بل وصل الأمر لأن أساعدهم في تحميل ما يغتصبونه من بيوت بعينها كان أصحابها يغلقون أبوابها الحديدية جيدًا.

وذات مرة وبينما كنت أساعدهم، وقع دفتر من صرة فملت عليه والتقطته وأخفيته في جيبي، وبعدما غادرت المكان وقفت تحت عمود إنارة، وأخرجت الدفتر فوجدت في أول صفحة حروفًا تحمل اسمي، وحينما تصفحت ما به من تدوين، اكتشفت أنها الأجزاء التي فقدتها من ذاكراتي، ما كان بمقدوري أن أقف في مكاني، فتحركت، وحينما عدت إلي البيت وجدت الباب مفتوحًا، فأسرعت ودخلت، فوجدته خاليًا، وقفت في ردهته يصاحبني الذهول، فأنا من ساعدهم في تحميل مقتنياتي، وأنا هو نفسي الذي بدأ يفقد كل الخرائط المرسومة في ذاكرته.

كان الخـواء يحيـط بـي وأنـا بـين جـدران عاريـة مـن كل شـيء، جـدران بـاردة ومحايـدة كأنهـا لـم تضـم تاريخًـا كان لـي، إحساسـي هـذا كاد أن يدفعنـي لأن أخـرج دفتـري مـن جيبـي، لكـن تفكيـري في الجوانـب المظلمـة مـن حياتـي، وكذلـك معرفتـي أن البدايـات أحيانـا تكـون خداعـة، منعانـي وطالبانـي بالتـروي.

تحركـت في الردهـة، كانـت كل الأبـواب موصـدة، ممـا جعـل الردهـة مقبضـة، فعينـي التـي أثـق فيهـا مسـحت المـكان، فلـم أجـد شـيئا فيـه، فشـعرت بالفـراغ المخيـف، الفـراغ القريـب مـن فـراغ المنـاطـق التـي خلـت مـن الذكريـات في رأسـي والتـي بـدأت بتسـريب الألـم، ممـا اضطرنـي إلـي الجلـوس علـى أول درجـة للسـلم.

بـدت بلاطـات الأرضيـة متسـخة، يـكاد اللـون الأبيـض أن يختفـي، لا يخفـى علـيَّ المدلـول الشـامخ خلفهمـا، فالتناقـض قائـم والعـودة لمعنـى الليـل والنهـار عـودة قاسـية في ردهـة خاويـة، تشـهد على واقـع شـديد الوطـأة يعذبنـي، ومـاض فقـدت أغلبـه كلمـا أبحـرت لأبحـث عـن شـيء أتعلق بـه، فقـدت جـزءًا جديـدًا، ولا أريـد في وقتـي الحاضـر الاقتـراب مـن لعنـة المعرفـة النائمـة في الدفتـر.

وكطفـل يلهـو، دارت عينـاي، عبثتـا بـكل شـيء، أثارتـا الكثيـر مـن غبـار الاكتشـاف، وأطلقتـا سـهام الكـره، وقبـل هـذا فعلتـا مـا يتوجـب علـى مـن وجـد في مـكان انفصـل عنـه، قالتا :توقـع الأسـوأ .

امتثلت لهما، وحتى لا أدخل باب التفاؤل فتكون خيبة الأمل من نصيبي وقت الفشل، منحتُ روحي الحرية، فغادرتِ الوعاء، وجلستِ بجواري على درجة السلم، تتابع معي الأبواب المغلقة التي لا تسرب شيئًا من ذاكرتي المعطوبة.

خبأتُ وجهي بين يدي، وتفرغتُ للركض خلف أي صورة تظهر لي، مجرد وجوه، ظهرت كخيالات عابرة، لم تقف كثيرًا، ولم تشهد بداية طقس اليوم، ولم يجلس أحدهم على عتبة البيت من أجل الشراء والبيع، فقط كانوا يتقاسمون ذكرياتنا المشتركة بنهم الجائع أو بقوة صقر حط على طائر مكسور الجناح، شبعوا وأخذوا كل ما يحتاجون وقبل أن يغادروني همس أحدهم في أذني:

- تمسك بالحياة فما زال بها الكثير لنعيشه.

وهموا بالخروج من تلك المناطق التي تبادلوا معي ما بها، قلت بصوت مرتفع: ليس الآن.

من المؤكد أنهم تألموا، فضغطوا على رأسي، فصرختُ ونزعتُ يدي، ورميتُ نظرة على الطرقة، كانت هناك ورقة تتسرب من باب انزاح قليلاً، تعمدتُ أن أظل في مكاني وأتابع الورقة المنفلتة، لكن تتابع خروج الورق من تلك الغرفة المعتمة جعلني أغادر مكاني.

اقتربت من الباب، فلفح وجهي تيار الهواء البارد، فانحرفت قليلا لأتفاداه، وفي مكاني هذا وقفت قليلاً، أرهفتُ السمع، كنتُ أريد التأكد من سلامته، فالإنسان حينما لا يسمع همس المارة فهو قد رحل إلى عالم آخر أو بأدق تعبير" عزل نفسه" تلك الكلمة جعلتني أدخل في قلب دوامة ثلجية، شارك التيار البارد في وجودها وكان السؤال:

- هل أنا انعزلت؟

كبر السؤال وسط معركة دائرة بين برد وداخل مثقل ومكبل بقيود تغل يد الحقيقة، حقيقة ما أنا فيه وحقيقة تلك الفراغات التي في ذاكرتي، كل هذا تلاشى أو توارى وأنا أدفع الباب ليظهر لي تماسك العتمة.

كان التماسك يخفي حدود الغرفة.

الشيء الوحيد الذي فرض نفسه عليَّ هو مفتاح الكهرباء ، هو موجود دائمًا بجوار الباب، لكن هل على يمنه أم يساره؟ فليس هناك قانون ملزم بتفضيل جهة دون أخرى، وحتى لا أطيل أمد الحيرة، شرعت في البحث، والبحث عن شيء ضائع هو فكرة قتل الوقت وسلب الحيرة، ويبدو وقتها أن ثقتي في نفسي كبرت، فمعنى أن أبدا فقد ولدت داخلي صيحة يقظة.

مـددت يـدي، بعدمـا تـحركـت جهـة اليمـين ولمسـت الجـدار، لـم أسـتطع أن أجـزم بنظافتـه، فهـو أملـس في موضـع وفي آخـر تبـدو خشـونته مرعبـة للنفـس، تمامـا كالذاكـرة، قلتهـا وتحركـت جهـة اليسـار وبـدأت التنقيب بواسـطة اللمس، وهممـت بسـحب يدي، لكن شيئًا غامضًا دفعنـي إلـي تحريك يدي لمسـافة قصيـرة، فاصطدمت بالمفتـاح، وطالتنـي صدمـة كهربائيـة، فوقعـت، ولمـا فتحـت عينـي أحسسـت بخيـط مـن ألـم يمتـد مـن اصبعـى إلـي رأسـي الموجـوع، تحاملـت محـاولا خلـق قـوة تتيـح للمرونـة أن تحضـر حتـى لا يقتلنـي ضعفـي تحـت سـياط كتبـي التـي ظهـرت لـي، فتماسـكت وقمـت.

اتجهـت إلـي الشـباك لأفتحـه، لأخفـف مـن تيـارات البـرد التـي لـم أكـن أعلـم مصدرهـا، ومـا إن مـددت يـدي لأفتحـه حتـى أذهلنـي مـا رأيـت، ثمـة عـوارض خشـبية تحكـم الخنـاق حـول الصلفتـين، وضعـت يـدي علـى فمـي، خشـيت أن أصـرخ، وأخـذت أبحـث عـن شـيء أفض بـه هـذا التشـابك، أعيانـي البحـث، فجلسـت إلـي أقـرب كرسـي احتوانـي، وبـدأت أصغـي لصـوت وجـع بـدأ خافتًـا، ثـم كبـر، ومـع الوقـت مـلأ علـىّ الغرفـة، ونظـرتُ إلـى الكتـب، ورحـتُ أبحـث عـن إجابـة لسـؤال: آخـر كتـاب قرأتـه؟

حاولت ، ولما فشلت، مددت يدي وأخرجت الدفتر وأنا أقول:

" هذا وقته"

أخرجت الدفتر، طويت الصفحة الأولى، وجدت تلك الجملة في الصفحة الثانية:

" أعلن أنى أول الأغبياء"

رفعت وجهي، عانقت أشياء كثيرة متناثرة على البلاط المتسخ، ثمة كومة يتسرب منها الورق، وضعت الدفتر بجوار خبز متعفن يلامس بقايا شاي على سطحه فطر لونه سمني، وعلى الجدار صور قديمة لبيوت وشوارع لا أعرفها، كلها صور قديمة، صور مختلفة، تطل عليَّ كأنها تريد أن تنهار فوقي، تركتها، وملت، تناولت ورقة وثانية، وجدتهما يحتويان على نفس الكلام، وحتى أتأكد ملت على ثالثة، فوجدت نفس الشيء، قربتها من عيني وبدأت القراءة:

" ربما أنسى ذات لحظة، فكان لا بد أن أكتب، لأقول لنفسي، كنت مغلقا مثل كتاب وضع على رف من أرفف مكتبتك، لا يفقه ما بين دفتيه إلا أنت ، وحدك فقط احترفت الصمت وحوار النفس ونسيت العالم، وزدت في وضع الأردية حول ذاتك، فأصبحت تنفر من كل من يقترب منك، حواجزك تعددت، وذات لحظة منعت عنك الضوء، فكرهت النهار، وعشقت الليل، فأنت لست أنت، وحينما تضيع منك المعالم، ضع كل شيء، وغادر سجنك، نعم غادر سجنك"

تركتُ البيت، وأغلقتُ باب المكتبة بأكثر من قفل، ومنحتُ نفسي للوجوه، لعلى أسترد ما فقدته.

والآن..كلما ركزت في السنوات، أرى أشياء واضحة، وأخرى تريد أن تختفي، وكأنها تلعب معي تلك اللعبة التي صنعت لي أوقات بهجة ، كنت لا أجيد التخفي، بل وكنت أترك أثرًا أو أكثر ليدل على وجودي، ومن يجدني كنت أنظر في وجهه، فلا أجد أي بادرة فرح، ويكتفي بترديد كلمة واحدة: مسكتك.. وبعدها يغرق في صمته

●●●

لا أحد يكتب الابتسامة

جلس كثيرًا بجوار نساء القرية، ليكتب لهن الخطابات المفخخة بالأسرار، وكثيرًا ما تجاهل العذابات التي كان ينقلها من ثغر موجوع لورق يبلله بحبر قلمه، وحينما يطوي الورقة ويدفنها داخل مظروف البريد يشجع ذاكرته لتنسى كل شيء.

خاض الكثير من المعارك الشرسة من أجل تلك المهمة المقدسة، وكان في أوقات كثيرة تلحق به هزيمة كاملة، وقت أن يمسك بالقلم مرة أخرى ليعيد الرسالة في دفتره، تنقطع صلته بالعالم الذي ينتمي إليه، ومن غير إدراك بعاقبة القادم يغرق في عالم يعيد تشكيله، بانتزاع ما كان وإعادة تدويره في متن حكاية تتكون من جديد في صفحات الدفتر.

بعناد مقامر، يغلق باب غرفته جيدًا، في وقت يكون فيه أهل البيت منشغلين في أمورهم، يُوسع محيطه، يكون مكان من أُرسلت له الرسالة، يوجده كيفما يحب، يركض خلف الإغراء الموجود في المتواري لا الظاهر، يتخلى عنه وقت أن ينظر فإذا هو هذا الرجل الذي كتب له الخطاب، وقد ملأت عينيه المرأة التي نقل على لسانها ما أرادت قوله..

كان يتـرك كل شـيء ينمـو علـى مهـل وهـو يسـتعيد مـا كتبـه، وحينمـا يصبـح الرجـل الـذي ذهـب إليـه الخطـاب، يقـول لنفسـه ذات يـوم قـد أكـون في مكانـه، فينظـر إلـى الدفتـر والورقـة البيضـاء، فتمـلأ الكلمـات التـي لـم تولـد عينيـه، تبـدو سـهلة وبسـيطة وعميقـة، حيـث تتداخـل الأفـكار بطريقـة ترفـع العقـل ليكـون مـكان القلـب تـارة، وتـارة أخـرى ترفـع القلـب ليكـون مـكان العقـل تـارة أخـرى .

تمـادى في خلـق عوالـم غيـر نمطيـة، وحتـى لا يكـون ممـلاً وتكـون حكايتـه مشـوهة، كان يرسـم بدقـة مـا سـوف يكـون، مـن خـلال تصـوره لمـن يحـب، فلطالمـا آمـن بـأن المـرأة مختلفـة، فخالـف رؤيـة الرجـال، لذلـك كان بعنـاد يعيـد صياغـة المـرأة التـي تتـراءى لـه والتـي كتـب لهـا خطابهـا في دفتـره بصـورة مختلفـة، كان لا بـد أن يشـوه الواقـع ليكـون جميـلاً في الحلـم.

عـدد كبيـر مـن نسـوة القريـة فعـل معهـن هـذا علـى الـورق، وعـدد أقـل أخبرهـن بوصفـات تجعلهـن كمـا تصورهـن، واحـدة منهـن وبعـد أن كتـب لهـا خطابهـا وقبـل أن يغادرهـا طلبـت منـه أن يقـرأ لهـا مـا كتـب، استغرب مـن الطلـب، فقـد كانـت أول مـرة يُطلـب منـه هـذا الطلـب.

ابتسـمت المـرأة، وقالـت:

- أنـت مذهـل - كمـا يقـال - في تقديـم الوجـع علـى طبـق مـن ذهـب!

وأعـادت ابتسـامتها مـرة أخـرى، لحظتهـا تزاحمـت بداخلهـا الابتسـامة الأولـى مـع الثانيـة، وكادت أن تمحـو إحداهمـا الأخـرى، وحينمـا خـرج مـن بيتهـا، نسـي مـا كتبـه لهـا، وتذكـر فقـط اسـمه.

داخـل الغرفـة، عـادت السـيدة مـرة أخـرى، كانـت ثريـة في التفاصيـل، عالـم مـن الجمـال الهـادئ الـذي يمتـد مـن وجودهـا حتـى اسـمها الـذي وجـد بحبـره في دفتـره وتحتـه لا شـيء آخـر، بيـاض بمسـاحة شاسـعة، يـراوغ عينيـه ليـزول، وكلمـا حـاول أن يكتـب مـا حـدث، يجـد الابتسـامة فيشـرد معهـا في عالـم يخصهـا، وضـع القلـم وكان في عالـم مـوازٍ لهـا، عالـم المـرأة التـي غادرهـا زوجهـا، ويأتـي إليهـا كل عـام ليقيـم شـهرًا واحـدًا، وبعـده يرحـل، ليثمـر رحمهـا بطفـل، فـلا تجـد إلا الابتسـامة، تجعلهـا حاضـرة علـى ثغرهـا، تذيـب بهـا مـرارة الأيـام، وكل أوجـاع الليـل الـذي يحولهـا لهشـيم علـى فـراش لا يقاسـمها فيـه إلا طيـف غائـب، فتحضـن أنينهـا وهـي تنظـر إلـى الجهـة الخاليـة بابتسـامة، لوجـه رجـل مشـوه.

يسـكنها الضجـر مـن ضحـكات تنفلـت في جـوف الليـل مـن بيـوت الجيـران، غنـج وأصـوات قديمـة تعرفهـا، يكبـر حينمـا يئـن الخشـب في أنـس الليـل، فتخبـر جسـدها أن مـن يـدك الحصـون قـد رحـل خلـف بريـق العملـة التـي تسـد الفـم، حديـث تنهيـه بابتسـامة للطيـف، ويظـل سـر الليـل داخلهـا، تحـاول بتـره في خطابـات كتبهـا فيمـا بعـد،

وهو يحاول بصبر أن يرسم للغائب ابتسامتها، أوجدها مجردة كما هي، بلا زيادة أو نقصان، وبلا أي غموض أو فراغ، لذلك والورقة بيضاء أمامه قال لنفسه من يكتب الابتسامة كما هي؟!

●●●

وجوه تحلم برعشة فرح

يقترب الحفَّار منها، يرشقونها بنظراتهم، يعانقون فروعها التي كفت عن التمايل وأوراقها التي أصابها الشلل وعافت الحفيف، تأخذهم بشكلها السابق، فلا يقدرون علي الكلام، ولا يجدون أمامهم إلا لغة العيون التي تسرب السؤال: ماذا نفعل؟

العجز يلجمهم، والكبر يجعلهم يضربون الكف بالكف، منهم من استطاع فك الكمامة وصرح قائلاً :

- الأمر للّه وحده .

وظل واقفًا يرنو إليها، منهم من برك بجوار جذعها، في نفس مكان جلوس الجد، يستعيدون جلسته وحكاية المكان.

مكانها كان في الأصل دروة[1]، تقام وقت جني القطن، يأتي الجد بحزم من البوص يحملها، وجدتهم خلفه تحمل مقطفًا به ميزان بكفتين وعدة الشاي، وبجوار جدار متهدم جدل دروته، وفي نفس المكان حدد مربعًا، مساحته لا تتجاوز مرقد حصير، حفر حدوده ثم ملأ الحفر بالماء، وزرع الدروة فيها، وعرشها بجريد النخل، أحضره بنفسه من دغل كان قريبًا من المكان، يظل بداخلها

١ أقرب إلى الخص لكنها أصغر تبنى من جدل أعواد البوص مع الجريد

مقيمًا لمدة شهر في انتظار كل قادم من الحقول، معه صرة من القطن يريد بيعها، وبعد انقضاء الشهر تأتي جدتهم وتظل معه من أجل كبس القطن في أجولة كبيرة.

أحيانا يكتفي الجد بالبداية، لكن على وقع لهفتهم يكمل وهم حوله، فينزع جلبابه ويسنده بجواره، وبابتسامته العذبة يشرع في سرد سيرة الشجرة ابتداءً من كونها نبتة صغيرة عثر عليها بين عيدان نبات القطن، ونقله إياها بجذورها المحاطة بالطمي، وغرسها أمام الدروة ، وانتهاءً بالحادثة الأثيرة إلى نفسه والتي كان يقصها بحماسة وبفرحة ، لا يترك تفصيلة إلا وعرج إليها مثل لون الحمار الذي مد خطمه وقطف قمتها، وكذلك طول الهراوة التي هجم بها على صاحب الحمار، وعدد الرجال الذين تدخلوا لإنهاء الخلاف.

بعد سرده لهذه الحادثة، يتكلم عن أوصافها وكيف أنها إذا طابت ثمارها فإنها تظل سليمة حتى نهاية الموسم دون أن يضربها الدود، وكيف كانت السبب في تفكيره في فتح الغرزة، لتكون مكانًا يستريح فيه كل من يتوجه إلى الملقة وكل منتظر لأتوبيس هيئة النقل العام.

يشتد صراخ الحفار، فيعدون إليها، يريدون إشعارها بوجودهم، تميل جذوعهم، يلتقطون الطوب والزلط الصغير،

وبلهفة الصبا المستردة يهرولون لالتقاط ثمارها، وبنفس اللهفة يلقونها في أفواههم، يتسرب إليهم مذاق لم يعهدوه، يسري عبر أوصالهم، يجعلهم ينتبهون لصوت الجرش الناتج عن محو لحم الثمرة عن النواة ..

يخرجون ما في أفواههم، يلمحون أشلاءً ممزوجة بلحم الثمرة، يتبادلون النظرات، ويلقون بباقي الثمر، ويتراجعون بينما جذعها يتهاوى، يسقط فيسقطون.

●●●

حذاء قديم وحزن

حينما بلي آخر حذاء اشتراه لي والدي، قالت لي أمي:

- تعال لأشتري لك واحدًا غيره.

سعدت بالمشوار لأنه يكسر عادة الحزن والنمطية التي كانت تُفرض علينا، فالمأساة تكمن في العجز، وحينما يتعمق فينا يجلدنا برؤيته وهو يمشي بيننا في كل ركن من أركان البيت، يرتدي ملابس والدنا الراحل، ويجلس بيننا على مائدة الطعام التي قلَّت الأنواع التي تقَدَمَ عليها، ووقت أن يحين موعد دفع مصاريف المدرسة، كنا نقف في كل مرة يدخل فيها السكرتير كي يحصي من تأخر، كنت أنال منه نصيبًا وفيرًا من التوبيخ، ولا يكف إلا بعد أن يأتي قرار الإعفاء من بنك ناصر.

أصبتُ دون إخوتي بالصمت، والاِستكانة، ونسيتُ كلمة: لماذا؟

كنتُ شغوفًا لدرجة أني تمنيت أن أسابق إطارات السيارة لأصل أولا إلى السوق التجاري في المدينة، وأنتظر أمي هناك أمام محل الأحذية الذي اعتاد والدي الشراء منه، وحينما وصلنا وجدتُ اتجاه السير لا يؤدي إلى الوجهة التي تصورتها، فخفتُ

وخشيتُ من المجازفة التي توقَعنا في اختيار غير مناسب، وحتى أهرب من القلق جَرَّبَتُ أنْ أتابع كل شيء أمرّ عليه: البنايات، الوجوه، وواجهات المحلات، وحينما اكتشفت أن مستوى الجمال والنظافة يقلّ كلما أوغلنا في الشوارع، وقفت عن المتابعة، وكنت كمن أُخبر بأن النهر ينتهي عند جدار ما، فوقفت خلفه، وخشيت مَدَّ نظراتي حتى لا أغرق في فضاء ربما يحمل المجهول لي، وربما الضياع، لذلك بقيت مستقرًا أتبع خطوات أمي، حتى وقفنا أمام محل كبير، وحينما دخلنا، قصدتْ كومة من الأحذية، وتكفلتْ بالبحث عن حذاء يناسبني.

هناك أشياء أستطيع أن أغيرها بسهولة، إلا مجادلة أمي وخصوصا وهي في لحظات عجزها، وتلك ظهرت لي وهي تحاول انْتِقاء أفضل ما في الكومة من أحذية، لتطلب مني بعد ذلك اِختيار ما يناسبني، وبعد جهد كبير بذلته، وجدتُ نفسي أمام عدد من الأحذية، ولم أجد لذة في المفاضلة، وبالتالي لم يكن هناك الرضى الكامل وأنا أختار واحدًا مناسبًا لمقاس قدمي.. وضعه التاجر في كيس أسود، وبعد مساومة، منحته أمي نصف ما طلبه، وخرجنا، كنت نصف إنسان عليه أن يأخذ الملكية من الآن مأخذًا جديًا، فالحذاء كان يخصني، وكأني أنا من اشتراه، وهو في فترة منتصف العمر.

طول المشوار، كنت أتعمد عدم لمسه وهو مُقبَر داخل الكيس، حتى ونحن نتجاوز عتبة بيتنا، كنت غير محتاج لأية كلمة تصف لي جمال الحذاء، فلو كان فيه ولو مسحة من جمال ما تخَلَّى عنه صاحبه، فنحن البشر نتخلى عن أشياء فقدت قيمتها، ومن ذلك اليوم بدأت السير في نفق طويل، غابت فيه كل إضاءة تخبرني بأن الغد سوف يكون فيه الأفضل.

منذ اليوم الأول الذي وجد فيه الحذاء، كان لابد أن أوجد التغيير الذي يتَلاءم معه، فأخرجته وألقيتُ به في طَّسَت الماء، فكان يطفو وأنا بإصرار أعيده للعمق باِستخدام العصا، وكلما اقترب مني أحد العيال ليرى ما أقوم به، كنتُ لا أملك قدرة الكلام، فالمسافة كانت هائلة بين ما أشعر به، وبين ما أود قوله، فالواقع كان وقحا، وأنا كنتُ مرغمًا على السير في طريق امَّح فيه كل أثر لمن سبقني وملك الحذاء.

بعد أن غسلته، تركته للشمس لتتكفل بمهمة طرد كل أثر لصاحبه، ولأنها لم تنجح كنت أسمع صوته في كل مشوار أذهب إليه والحذاء في قدميّ، يرسم لي خطوطًا وحكايات، وأصبحتُ جزءًا من حكاية مبتورة، لآخر انفصل عن حذائه، وكلما تعمقتّ رائحتي داخله، كلما وجد مزيج الأرض التي أمشي عليها فيه، ومع الوقت خَفَّ وقع تلك الحكايات، وبدأت الراحة، تعرف طريقها إليّ، وجاء الغيث كاملاً، حينما همستُ له:

- من أضاع ذكرياته معك هو الخاسر

كان هذا الصوت قادرًا على أخذي من واقعي إلى حقيقة واضحة، ورويدًا رويدًا تآكلت كل عوامل العجز، وأصبحت حساسيتي غير موجودة، وحينما كبُرتُ، كنتُ أقول:

- لن يمشي في حذائك غيرك.

أقولها وأضحك، فهي لم تدخل رأسي طول عمري، لأني كنتُ ممن يرتدون أشياء الغير، لذلك كلما فني حذاء لي، حفظته ولم ألق به خارج البيت، لأنه ربما دخل بيتًا آخر، وعاش ما كنتُ أعيشه مع أحذية الغير.

●●●

العابر

حزم حقيبته وقرر الرحيل، وقف قليلاً في منتصف ضريح عاش فيه ردحًا من الزمن، ليذكر ما كان.

قيل بأنه ولد في تلك البلدة الظالم أهلها، والعارفون بالأمر أقنعوه بأنه وفد إليها حينما نقل والده للعمل كملاحظ في شركة تشييد كانت تتولى بناء خنادق للنجاة، وحينما عشق البلدة، قرر الإقامة فيها، هو لم يهتم كثيرًا بكل ما سرد عليه، وقال الفتنة في عين من مال وأحب، وترك التاريخ وتعلق بلحظته، هام في الدروب وفي الحارات، ووقف كثيرًا على الطرقات، يتابع كل قادم، وكل مغادر، وفي يوم وجد أن العدد لا يصب أبدا في صالح مجموع الباقين، بحث عن السبب، قالوا له: أنت غريب، وما يدور هنا ليس من مصلحتك أن تخوض فيه، رمقهم بنظرة حملت هامشًا من الدهشة، وغادرهم، وراح يستوضح الأمر بنفسه، رأى فريقين بينهما نزاع، قال: العقل لمن تدبر، راقب فوجد أن أحدهما يهدم ما استقر بداخله من جمال، والآخر يحافظ على كل ما فات، وكأنه تمثل والده العاشق، فتقدم من الطرفين، وأصبح في المنتصف، وما هي إلا دقائق وتحول لعلامة، يصوب عليها الطرفان..

فيما بعد اختلف الكثير ممن شاهدوا الموقف حول الرصاصة التى أودت بحياته، ومن أى جهة جاءت.

هذا لم يمنع الرأى السديد، لفئة حددت ما حدث بدقة، وهؤلاء عاشروا كل الحكايات بإحساس فاتر، تحملوا إلى أن تسربت الرتابة إلى حياتهم، وأصبحوا أكثر ميلاً للصمت، وتكذيب أنفسهم، وأقرب إلى روايات الفريقين.

اللحظة التي صوب فيها الفريقان فوهات بنادقهم للجسد الذي احتل المسافة بينهما، انتبه الجميع، ووجد الفريق الثالث، تابعوا الجسد وهو أكثر استجابة للموت، عبر ابتسامة رسمها بعناية وبهدوء، وحينما اخترقت الرصاصات صدره، ثبت في مكانه، ولم ترمه الطلقات بعيدًا، كأنه يقول: احتل أرضًا ودافع عنها.

وفي اللحظة التي سقط فيها على ركبتيه، وثب كل فريق للانقضاض عليه، وكل فريق يتمنى أن يتفوق على الآخر، ورغم تفاوت القوة لصالح أحد الفريقين، إلا أنه كان من نصيب الفريق الثالث.

وهؤلاء هم من نسج كل واحد منهم رواية تتوافق مع نفسه وهواه.

وباستهانة نظر كل فريق من الفريقين المتحاربين إلى بعضهما، وتراجعا للخلف، وكل واحد وصل لآخر نقطة سيطر عليها، وسرعان ما حمل الجثمان، ونشأت علاقة جديدة بين البلدة وبين الغريب.

علاقة بين من احتل مكانًا وقاتل من أجله، وبين مكان مل من قتال لا يولد إلا العداء.

وعلى الرغم من الاختلاف فيما بعد في المكان الذي يجب دفنه فيه، إلا أنهم عاشوا ليلة واحدة، لم تتكرر فيما بعد، لم يحضر الخوف بظلاله، ولم يعنف أى واحد منهم ذاته، ولم يجلدها، بل ظهر ما حدث كأنه أمر معتاد.

وفي الصباح والجثمان يتمدد على منضدة كبيرة في المشرحة المكتظة بمن قتلوا، ولد السؤال، كان كالفيروس، دخل إلى عقول الجميع: لماذا لم تحاول النجاة؟

حضر الصمت، فشملهم، حتى وخرير الماء المناسب على جسده يصلهم، وعيونهم ترى صدره المثقوب، كان الصمت أكثر حضورًا، وأصبح له زئير، ولأنهم يعرفون أن الجرح يجمع بخيط، حملوا النعش، وقرروا رد الاعتبار له.

وفي المكان الذي قتل فيه، حفروا حفرة تصلح لتكون مستقره المؤقت، وبنوا فوقه قبة سلطانية فخمة، وكتبوا علي ضريحه: جاء من هامش الحياة، فخلد.

وعندما مرت الأيام، وأفنى الفريقان بعضهما، جاءت وسائل الإعلام، لتسجل بطولات الفريق الثالث، وصلوا إلى الضريح، وجدوا عجوزًا بجواره، تدعي أنها أمه، كلموها، قالت لهم:

- لا تعاشروا أشباحًا فقدوا ذاكرتهم.

ثار الحشد، وحملوا المعاول، قتلوا العجوز، وهدموا الضريح، نبشوه فلم يعثروا على شيء.

وهو يودع القرية، شعر بعبء ثقلها، تخفف من جزء منها، كان يمد يده، ويخرج رأسًا مقطوعًا، يلقيه في جانب الطريق، وفي اللحظة التي فرغت فيها الحقيبة، ألقى بها وسط كومة قش، وأشعل فيها النار، وجلس بجوارها، ونظره على أشجار السنط التي راحت تنمو من كل رأس، اكتمل صف الأشجار، قرأ بعضًا من الكلمات، وما إن أتمها حتى تحول لحجر، مر في لحظة الاكتمال كلب، رفع إحدى ساقيه الخلفيتين وبال عليه، شهق، وشعر بأنه يغرق هناك في صمت.

●●●

عين مفتوحة للداخل

خرجت علينا في كامل زينتها، الجلباب الأسود والشال القطيفة، والكحل في العينين، وشبشب جلد في قدميها الناعمتين، ومن دون كل إخوتي قالت لي:

- خلى بالك من اخواتك، أنا رايحه مشوار.

زام والدي المستسلم لمرضه داخل مندرته[٢]، وهى اكتفت بأن ألقت عليّ نظرة ومضتِ.وأنا سافرتُ معها.

تذهب أمي إلي بيوت البلدة، خصوصا المستورون منهم، تؤدي لهم أشياء كثيرة، لا تؤديها النساء في تلك البيوت، فهي تحمل روث البهائم من الأحواش المعتمة بمقطف، وتغسل الأرضيات والمفروشات، من سجاد وبطاطين في بداية الشتاء وفي نهايته، وفوق هذه الأعمال يسند إليها غسيل غيارات الأطفال، وهناك عمل لمحت إليَّ به وهو العناية ببعض كبار السن، وأنا لم أكن أحب هذا الجانب، ليس كرهًا في أمي لكن كرهًا في نظرات العيال الذين تدخل أمي بيوتهم، فلا مشكلة خارج جدران المدرسة، فنحن والشارع والغلبة للقوى إذا ما نشب خلاف، أما بين جدران المدرسة فالغلبة لهم بسطوة أهلهم.

٢ غرفة يستقبل فيها الضيوف

وأنا في المدرسة كنت أحافظ على نسق معين لا أغيره، كنت أختار مكانًا خاصًا أجلس فيه وقت الفسحة بعيدًا عن هرج العيال وصخبهم، يشاركني تلك الجلسة بعض الأصدقاء، في جيبي دائمًا وسائل تسليتي التي تغنيني وتجعلني أتقبل الفسحة الكبيرة، فرغم ثقلها دائما النحلة[٣] بدوبارتها معي، وبعض قطع البلي، وثلاث ورقات مكتوب عليها: ملك وزير وحرامي، كل هذا كان موجودًا إلا القطع المعدنية التي تصنع البهجة باستبدالها بقطع الحلوى الشعر أو البوظة.

وكأي شيء يأتي عليه وقت ويكسر، سارت إلى المكان الذي نجلس فيه بعض البنات، كن يركلن كرة، أوصلتهن إلينا، تقدمت أجملهن، مدت يدها، وأحدنا تعمد مد يده ثم كنها، وفجأة كان بيننا أحد المتشيعين لها، صدح لسانه بالشتائم، كان يمكننا أن نتجاوز ونسكت لكنه حينما مس المكان الذي خرجنا منه، وأضافه إلي أمهاتنا، تصدينا له، مسحنا بنظرة، ووقف عندي أنا، قال لي:

- حاضر يا واد اللي بتريح.

هجمت عليه ولطمته على وجهه، ثار وهاج وقص حكاية أمي مع جده، سمعت وعند عودتها إلى البيت هجمت على غرفتها، جمعت كل أدوات الزينة الخاصة بها، المكحلة وزجاجة المسك

---

٣ لعبة منحوتة من الخشب تربط بدوبارة

الصغيرة وبرطمان الدهان الذي تشتريه من الحناوي[٤]، وألقيت بهم خلف الدار، فابتلعتهم غابة الحلفا.

ضمتني إليها، فبكيتُ، وطالبتني بعدم الاستمرار في البكاء حتى لا أوقظ والدي المريض، سكتُ وبلسان طفل يدرك ما يقول صرخت فيها:

- متروحيش تاني البيوت دي.

ربَّتت على كتفي وأخبرتني أنها تقوم بعمل ينفر منه أهلهم وأن الكبار أطفال يحتاجون لمن يرعاهم ويلبي طلباتهم، وأضافت:

- وأنا يا ولدي عارفه ربنا، المهم همَّا يعرفوا.

صرختُ في وجهها، فتراجعتْ وبكتْ، وقامتْ، فتحتْ الكيس وأخرجتْ منه بقايا أكل أحضرته، وبقيتْ قريبة من إخوتي، بينما هم بنهم يدخلون المعركة مع الطعام بوجوه مبتسمة.

●●●

٤ بائع متجول يبيع أدوات الزينة للنساء

سخرة

وقف أمام ضابط النقطة، وفي يده كيس به بعض الخبز وقطعة جبن، وحبة طماطم، وفي رأسه بعض الأفكار الغريبة التي لا تصلح لينهي بها حياته، بعد أن قرأ واقعه بطريقة لم يشفع له فيها كل التاريخ الذي يعتز به أهله، ولا حتى مقام جده الذي يستقبل كل غادٍ ورائح بجلال، فالضابط نظر إلى وجهه وإلى تحقيق الهوية التي بين يديه، سأله:

- لسه طالب؟

- لأ.

- طيب ما تغير المهنة.

- وهيفيد بأيه أكتب حاصل على مؤهل ولا أعمل.

- إثبات حالة.

سكت، ولم يرد، احتال بصمته حتى لا يدخل في سجال يعيق وصوله لسيارة نقل العمال للضفة الأخرى من النهر، فهو كان يدرك أنه لو تأخر قليلاً فلن يحلق بالسيارة، فأمه كما عودها، توقظه مبكرًا، يصلي، ويجلس إلى إفطاره المعتاد، كوب شاي،

وبعض الكعك، لم يتذمر يوما على ما يتناوله، حتى لا يرى الاعتراض يطل من وجوه إخوته، فكل شيء محدود في البيت، حتى رغبة إبداء الاعتراض على مقومات معيشتهم، كان أول من اتبع التعليمات، فهو الكبير، لا يقف عند تفاهات الأمور لكنه لا ينسى الأحداث التي غيرت حياته، كان يعد عمله في الفاعل مرحلة وسوف تنتهي حينما يتسنى له الحصول على عمل بشهادته.

يودع أمه بابتسامة صادقة، حتى والسؤال الملح الذي يتردد داخله(لماذا أنا؟) أرض الإجابة لم يطأها أبدا، فهو يعتنق القول الدارج، ما ضاقت إلا وفرجت، الدستور الأول لجدته، حتى وهو أمام الضابط الذي راح يفتشه، كان يتعلق بدستوره، ولأن الدساتير في كثير من الأنظمة حبر على ورق، تحفظ في الأدراج، أغلق الباب في وجهه لسبب كان يجهله، ووضع القفل حينما التفت الضابط إلى البلوك أمين وقال له:

- خذه إلى الإسطبل...

في أقل من دقيقة يحاط بجنديين، ويقاد إلى داخل النقطة، وبقدميه يجتاز العتبة الملعونة، وصف جدته لها، تطلع إلى المدخل المبلط والمنتهي بدرجتين تفضيان إلى صالة كبيرة لا يوجد بها إلا مقعدان خشبيان، كل مقعد يتسع لثلاثة أشخاص، على جانبيها تتوزع الغرف، غرفة للحجز، وواحدة تتصدرها لافتة البلوك أمين،

وأخـرى لرئيـس النقطـة، ورابعـة لحفـظ السـلاح، والجـدار المقابـل بـه بـاب مفتـوح، وهـذا بالـذات قـدر لـه أن يجتـازه برفقـة الجنديـين، قبـل أن يجتـازه، خطـوات قليلـة يجـد نفسـه في الحديقـة الخلفيـة، حديقـة يغلـب عليهـا الأشـجار المثمـرة، والقليـل مـن الـورد، وصـف مـن النخيـل متـوزع بجـوار السـور العالـي، والإسـطبل مـكان يفتـح عليهـا، وجـده خاليًـا مـن الخيـل، مرابطهـا باقيـه، والسـروج معلقـة في أماكنهـا، عددهـا بعـدد الخيـول الموجـودة، وقبـل أن يفيـق مـن صدمـة ضيـاع اليـوم، يـرى البلـوك أمـين، وهـو يسـوق أمامـه رجلـين، لمـا اقتربـا منـه، عرفهمـا، فلمـا وصـل إليـه، أشـار إلـى أرض الحديقـة، وقـال:

- مش عاوز عود نجيلة واحد.

يتحـرك خلـف النباتـات الضـارة، وفي نفـس الوقـت يشـعر بـأن هنـاك ألـف عـين وعـين تترصـده، يتمنـى لـو تثقـب رأسـه الآن فيخـرج كل مـا بداخلـه مـن حكايـات، لتسـماره هـو لا أن تقلـق السـاهرين، لأنـه كـره كل مـن يتفـنن في تحويـل ليـل النـاس لجمـر.

ينضـم إليـه الرجـلان، ويتفـرغ كل واحـد منهـم لطحـن مـا تنالـه يـده مـن طعـام أعدتـه أمـه ليكفيـه هـو فحسـب، وبعينيـه يجـدل حبـلاً ويشـده بـين النخلـة التـي يجلسـون تحتهـا وبـين عمـود الإنـارة الواقـع خـارج المبنـى، وبإتقـان يعلـق عليـه كل عناويـن الحكايـات التـي سـمعها، يعيـده أحـد الرجلـين إلـى الجلسـة:

- معاك سجاير يا أبو الشيخ.

ينظر إليه بغيظ، ويرد:

- مش بدخن يا عم.

- والدك كان حريقة سجاير!

تتدلي صورة لوالده، ومن داخل أربعة عيون يراه، فينتفض، ويغادر الرجلين ويعود لاقتلاع الحشائش الضارة، يتمنى لو عاد كفرخ أبيض لا يدرك من عبء الحبر الكثير، وقبل أن يمعن خلف أمنيته، تهب ريح خفيفة، تحرك عيدان البصل والثوم، يرى كل شيء يتحرك، ينصت لتلك اللغة، ويتذكر:

- في حضرة الريح يا ولدي لا نملك إلا الصمت.

لا يعرف يومها كيف نطق:

- الريح يا والدي تنادي غربة السفن.

ينصت ويده تمسك ببعض الحشائش التي اقتلعها، ويسأل نفسه:

ما مناسبة هذه الكلمات؟.

يبتسم، ويقول:

- وماذا يفيد الآن، فأنا في السخرة.

●●●

١
بخاج أبيض

دخلتِ المقهى، من دون تفكير اختارت ركنا متواريًا، وما إن جلست على الطاولة إلا وأرسلت حواسها، وصلتها رائحة القهوة الدافئة ممتزجة برائحة الدخان وبثرثرات الجالسين في الأركان، خصوصا المطلة على الشارع الرئيس والحارة الجانبية، وما لفت انتباهها وجعلها مندهشة، نظرات الشاب الذي يداعب عوده في الركن المطل على الحارة، جفلت منه، لمجرد تأكد ظنها، لأنه كان يبستم لها، اجتاحها شعور أنها جزء من لوحة سريالية تتجسد لها، متقنة، والشاب يبدأ في العزف، كل محاولات الحيطة والحذر تبددت، فقالت لنفسها:

- يبدو الفرح حاضرًا على وجهه!.

والشاب يعزف، لم يكن يصلها صوت العود، ولا نغمته التي تحبها، كانت تستمع لصوت الصحراء، صوت ريح قوية لا ترفع الأوراق، بل ترفع كل شيء، مؤلم حقا أن تسمع عكس ما يدور، تبتسم عندما تتذكر جملة قرأتها: هواء الصحراء له سحر عجيب.

تشرد، فكم حلمت بليلة في صحراء شاسعة، تحت زرقة سماء تطل بنجومها عليها وهي عارية، لا تهتم لكل ما حدث بجسدها، تغسله بالنور النقي، وتترك الهواء ليدخل لكل ثقوبها، لا تخشى من العيون، حتى شعرها والريح تطيره، ستتركه لها، لتحوله كموجات، تتخلص من الرؤية، وتعود للشاب الذي جعلها تبتسم لما استعادت حلمها، تجده يعيد العود إلى سطح الطاولة تقول لنفسها: لمَ لا أجلس إليه هو في مثل عُمر ابني!.

تقوم، وتستأذنه، يسمح لها، تبدي إعجابها بما عزف، يشكرها، فتخبره بأن المقطوعة كانت تشبه أثر كلمات قرأتها اليوم، تخرج له من حقيبتها دفترها، تفتحه على صفحة معينة، تشير إلى الكلام، يمد عينيه ويقرأ: أيها المسافر، لا يوجد طريق للخلف، الطريق للأمام، الطريق في الركض، ولا حياة في التقهقر.

ينظر إليها ويسألها:

- من أنت؟

- ......

طلبت منه أن يضرب على عوده مرة ثانية، فعل ولما انتهى وقفت وغادرت المقهى، ولما توارت عن الأنظار، تذكر أنه لم يقل لها وداعا، فلملم حاله، وأمسك بالعود وغادر المقهى، ليلحق بها ليودعها كما يليق.

لما وصل إلى الميدان، وقف في مكانه، وراح يراقبها وقد استقرت أمام مدخل البوستة، مستسلمة لعبارات الكراهية المكتوبة باللون الأحمر، وبإصرار أخرجت من حقيبتها علبة، وراحت تمحو العبارات بطمسها باللون الأبيض الذي تطرده البخاخة.

اقترب منها رجل قصير يرتدي بدلة أنيقة، حاول أن يرسم ابتسامة مصطنعة وهو يتحدث إليها، ولما طال الجدال، تحرك من مكانه، وفي اللحظة التي اقترب منها لاحظ أنها لم تكن خائفة، عكس الرجل الذي راح يخفي خوفه وهو يخبرها أنه مسئول الأمن في المحطة، ويخشى من بطش من كتبوا تلك العبارات، لو مروا على المكان ولم يجدوها، نهرته وذكرته بأنه يقصر في واجباته، طأطأ الرجل رأسه وغادرها وهو يتمتم بعبارات لم تصله منها أى كلمة.

انتبهت إلى عازف العود فابتسمت في وجهه وقالت له:

– أعتذر لك لأني غادرتك من دون أن ألقي تحية الصباح، لكن كما ترى كنت أفكر في عملي.

– عملك!

– نعم، هم يكتبون وأنا أزيل قبحهم، أليس هذا العمل يستحق؟

– بلى، ألا تخافين من عقابهم؟

– الخوف مدمر، ولو استسلمنا له لمتنا.

انتبهت لدهشته، وطلبت منه التحرك بعدما دست البخاخة في حقيبتها، وراحت تقص عليه حكايتها.

٢

خالفت الناس فقتلوها!

الجملة بعلامة التعجب، وضعتْ على بابها من آخر سيدة غادرت الشارع، لم تردعها كلمات زوجها الذي حاول أن يثنيها من قبل عن وضع الماء لحوض الفل الغض القائم على يمين الباب الموصد منذ شهر.

عند عودتها إلى الحافلة المحملة برحالها، كان بيدها عود فل، راحت بهدوء تقربه من أنفها، وهي تشعر بأنه لا توجد بارقة أمل تخبرها بأن ما كان سوف يعود، تؤلمها تلك الملاحظة، فتقرب عود الفل أكثر من أنفها، فينتشي داخلها، وتهمس: كانت امرأة من الجنة.

في بداية وجودها في البناية، كانت تزعجها أصوات الموسيقا التي تتسلل من شقة جارتها، وذات مساء حملتْ كل الغضب في عينيها، وتوجهتْ إليها، طرقت الباب، وظلت تنتظر اللحظة التي تفتح لها، ولما طال زمن وقوفها لم تكن تخشى من زيادة نسبة الأدرينالين في جسدها، فتلك كانت أمنية تريدها.

وفي اللحظة التي ظهرت فيها الجارة، كان على وجهها ابتسامة حنون مرحبة، فوقفت وأيقنتْ أنها قُتلت، وجارتها نجت بما لمحته على وجهها، وبسرعة بدلت سبب حضورها، ودفنتْ السبب الحقيقي.

دخلت، وانتظرت حتى تغلق الجارة الباب، لتأخذها حيث تريد، وحينما وصلتا إلى الصالة، تلقاها الكرسي كجثة هامدة، وتاهتْ، وخشيتْ أن تفقد عقلها في تلك الشقة المرتبة، والمفروشة بطريقة تذهل كل عين تدخلها.

لاحظت الجارة الصمت والدهشة على وجه الزائرة فتركتها، وقامت ودخلت المطبخ وبعد أن شاركتها احتساء القهوة اتفقتا على تكرار الزيارة.. تحدثتا في كل شيء، كانت الجارة أكثر تحررًا، فحدثتها عن أول قبلة، وعن ابن الجيران وخطاباته التي كانت تصلها سرًا منه، وعن زوجها الذي كسر عظامها لأنها لم تضع الملح في الطعام.

وحينما فرغت الحكايات، ولم تجد الجارة ما تحكيه، كانت تصحبها إلى أماكن في المدينة لم تذهب إليها من قبل، وفي تلك المشاوير كانت الجارة تمارس فعل المحو لكل العبارات التى تؤذي العين، خصوصًا تلك الكلمات التي توجد على جدران المباني الأثرية، أو لوحة تُعرف بشارع، تخرج من حقيبتها البخاخ، وتغطي القبح باللون الأبيض.

تعجبتْ مع أول تجربة وسألتها، فضحكتْ وأخبرتها أنها منذ صغرها تمنتْ أن تصبح قَشَّة صغيرة، تطاوع الريح فتحملها، وتلقي بها وسط حوض زهور، وهناك تغيب وتقضي الباقي من حياتها، فشلتْ في تحقيق حلمها، فأخذتْ على عاتقها رفع كل عبء تجده عن عاتق البشر والحجر، خصوصًا تلك الأشياء التي يراها غيرها، ويعبرها وهو يقول: "أمر قبيح" ثم يتابع السير، وكأنه ما رأى.

وفي الوقت الذي بدأت الشعارات تأخذ طابعًا طائفيًا، شعرتْ بأن القَشَّة طيرتها الريح، وأصبحت طُّعْمُا لنار، فكانت تغادر شقتها، منذ اللحظات الأولى للصباح.

وذات ليلة فتحت الموضوع مع زوجها وأخبرته بما تفعل الجارة في شوارع المدينة، هز رأسه وقال:

– هي الآن قَشَّة تتلاعب بها الريح، ولا تعرف لها برًا لتستقر عليه .

حملتْ الرسالة، حاولتْ أن تبعد رفيقتها عن الطريق الذي اختارته، معددة أنواع المخاطر التي قد تلحق بها، اِسْتَهانتْ الجارة بالأمر، وأخبرتها أنها لن تتراجع عن إزالة القبح حتى لو كانت كخيال يرتبط بالنار.

سمعت منها، وقبل أن تفارق شقتها، قالت لها:

– ليكن ما تريدينه، فالغريق يتعلق بقشة.

ابتسمت الجارة، وهي تتذكر وحدتها في المدينة، وراحت تضع بخاخة الألوان، وقالت:

– العصافير تشيد دائمًا أعشاشها من القش، من أوهن شيء، تجمعه من الشتات، لتحتمي به، وأنا الآن قَشَّة.

وخرجت.

في ذلك اليوم فعلت أشياء عجيبة، أزالت كلمات الكراهية والتخوين والعمالة والقتل والوعيد، وكتبت أبياتًا من كلمات شاعر ينادي بالحب، الكلمات حركت الداعمين للقبح، وأيقنوا أنها هي القشة التي لو تركت لقصمت ظهر البعير، فدس أحدهم نصل مِطْوَاته في جنبها، وهي تتلقى الطعنة، سقط منها بخاخ الألوان، ركله القاتل، فطار فسكن بجوار جدار مازالت عليه نفس الكلمات.

والسيارة تغادر الحي، كانت عينها تراقب كل شيء، ورائحة الفل تتوارى تحت ظلال جدار، عليه تاريخ الجارة

●●●

سيل

ألقـى نظـرة علـى ضـوء رواق جـاره المضـاء، ثـم سـحب عينيـه وقـال:

- ستبدأ اللعبة .

عـاد وبالقـرب مـن عمـود الإنـارة جلـس وشـرع في رص قطـع القوالـح[٥]، وبينمـا هـو منهمـك وصـل إلـى أذنيـه صـوت تهشـم أعـواد بـوص أو عشـب ناشـف، رفـع عينيـه وجـال بهمـا، لـم يجـد حولـه شيئًا:

- ربما يكون كلبًا أو قطًا .

هكذا أرجع سبب ما سمع وعاد ليكمل ما كان يقوم به .

عـودة الصـوت مـرة أخـرى جعلـه يفـارق محيـط قعدتـه، ألصـق عينيـه بصـف البيـوت المقابلـة لـه، اكتشـف أن جاره قد أوصـد النافذة، تعجب كونـه لـم ينتبـه إلـى مـا قـام بـه، ولإكمـال اكتشـافه حـرك عينيـه جهـة اليمـين، وقـف أمـام الظـل المتحـرك بحـذر، تتبعـه وهـو يكبـر متسـلقًا الجدار المطل علـى سـطح البيـت المغلق، وبالتركيـز قليـلاً في الظل المتحـرك لمح الـرأس المتـوج بالشـعر الكثيـف المتهـدل، فهمهـم:

٥ هو الجزء المتبقي من كوز الذرة بعد فصل الحبات عنه

- إنها هي.

اعتاد لشهر مضي على رؤية المشهد، يكون جالسًا والليل لم ينتصف بعد، أو قبل أن يصيح الديك، يراها وهي تقفز الحاجز الصغير بجسدها المكتنز المزدان بأشياء يراها معلقة على المشجب المتصل بنافذتها، أشياء تتبدل في كل مرة، يحضرها زوجها من بلاد الغربة، تلبسها له شهرين هي أجازته كل عامين، وحينما يرحل تبدأ في رمي شباكها على صاحب عين فارغة تغلقها بجسدها المدكوك وبأشياء لا تمتلكها إلا هي، حاولتْ معه، كانت تأتيه وتتفنن في حركاتها، غضَّ الطرف عنها وأحاطها بالتجاهل وعاملها معاملة الزبائن.

- فاكر.

يقولها ويسند ظهره إلى الدكة وبصفاء خاطره يمسك بالعصا، يقلب قطع القوالح، بينما صياح عارم يملأ الرهبة[٦] بكلمة جووووول.

اشتعلت النار وعلت ألسنتها مع دلقه نقاط النفط، تابع ألسنة اللهب فوصلته طقطقات القطع مخلوطة بالصياح، هز رأسه وعاد للشباك وجد نوره قد تلاشى، اكتشافه جعله ينتبه إلى الدخان المنطلق من المنقد، دفع بالعصا لتخفيفها، عادت النار تزغرد،

٦ مكان متسع يتوسط البيوت

تركهـا، وحـط عينيـه علـى الـرواق ، لمـح ظـلاً ينسـحب في وضـع الركـوع، يلقـي بنقـاط إضافيـة مـن الجـاز، فتعـود ألسـنة النـار.

كلـب ينبـح، يسـتدير بعينيـه نحـوه، يـراه رامحًـا مـن بـاب بيـت جـاره، شـافه فتمتـم:

- سوف يخرج.

يـراه وهـو يلاحـق الكلـب بحجـر صغيـر، رمـاه فأصابـه في إحـدى رجليـه، فوقـف الكلـب ينبـح بقـوة ثـم مضـى وهـو يعـرج.

وعندمـا جلـس جـاره أمامـه، فـرد الجريـدة، فمـد يـده يريـد منعهـا بحجـة تعكيـر الجمـرات المعـدة لشـي كيـزان الذرة.

- شايف إيه؟

سمع وارتبك، ثم دخل في دائرة تسيجها الحيرة والدهشة معاً

- ورقة

- فيها إيه ؟

نظـر إلـى الورقـة فعانـق الأهرامـات الثلاثـة باللـون الأحمـر، وقـرأ سـنة التأسـيس وأسـم المؤسـس، ورئيـس التحريـر، وسـقط بعينيـه وأكمـل:

- صورة لفريق الكورة ومعاهم المدرب.

- وإيه كمان؟

- صورة للسيول في سيناء.

ولدت ابتسامة غازلت شفتي جاره ، لمحها الأخير فسارع إلى إزالتها:

- أنت لما مسكت الورقة راحت عينك جهة اليسار، فشفت صورة المنتخب، وده مش طبيعي، لأن المفروض العين تروح ناحية اليمين، ولو حدث ده كنت شفت صورة السيول في الأول، وبعد كده صورة المنتخب.

يقاطعه:

- طيب ما ده طبيعي.

- طيب مسألتش نفسك ليه؟

- ده يا سيدي شغل الإعلام ، بص ، آدي الورقة.

يفردها، يرى صورة المنتخب كبيرة وطالعه لفوق بعض الشيء، وصورة السيول صغيرة ونازلة عن صورة المنتخب، يكتفي ويسحب عينيه، ويريحهما على وجه جاره، يراه مسكونًا بنشوة الانتصار.

فطن الجار لما يدور في رأسه، فخاطبه وهو يحرك أصابع يده من صورة المنتخب لصورة السيول:

- الرسالة واضحة، عاوزين يقولوا إن الأولوية للكوره مش للسيول.

سكت وأغلق عينيه على الأمواج الهادرة وهي تجتاح سيناء، وجارته على مركب تتلاعب بها الأمواج، يغرق في المشهد فيشد الجريدة منه ويتركه ويقوم.

يدخل بيته، ويقصد المندرة، يغلق بابها على نفسه وينظر إلى مكوناتها، كل شيء في مكانه منذ زمن بعيد لم يحاول تغيير وجود الأشياء، مرات همَّ بذلك لكنه عاد وأحجم بحجة أنها مرتبطة بأرواح من رحلوا.

الغرفة تضم جسده وحفنة من الوجوه المصلوبة على الجدران، يشعر بأنها تراقبه وتعد عليه أنفاسه، لا يكتمل يومه إلا باختيار أحد الوجوه واللعب معه لعبة المناجاة.

يختار الصورة ويعانقها وهي في بروازها القريب من لون البن المحروق، يمد يده ويمسح ما ران عليها من غبار، يسترد زجاجها بعضًا من بريقه.

الصورة قديمة جداً، يومها كان في العزل، بالأمر لبس جاكت مموَّهًا ووضع باريه فوق رأسه يتقدمه النسر الناظر جهة اليمين، حاول بحكم عادة أصحاب العمائم مد يده لضبط حبكتها، فلم يستطع تحت أمر صدر:

– متتحركش يا دفعة

ساعتها حطت ذبابة على وجهه، مد يده فهشها، طارت وعادت ولما هم بهشها ثانية زعق فيه صاحب الوجه الغائب تحت ستارة من القماش، وأمره:

– خلاص. خليك ثابت.

خشي العقاب فتركها تحتل منطقة بحجمها على خده الأيمن، من يراها يظن أنها وحمة أو حسنة، وهي في الأصل كانت نتاج لحظة خوف تمكنت منه في مكان كان يغص بالجنود المدججين.

ما زالت الجريدة في يده، وصورته كما هي، يقترب و ينزعها، وبهدوء يخرج يرميها والجريدة في قلب المجمرة، فتعود ألسنة النار.

●●●

العالم الآخر

- اصمت!

تلك كانت صرختها، أو ظننتها هكذا، وأظن أنها كانت في صلاة، حينما عدت مرة أخرى كانت تستند إلى جذع نخلة لا تملك قوة هزها لتسقط عليها رطبًا، استقامت وهي تقول:

- والدك غرسها يوم مولدك.

وسكتت، ثم عادت وسألتني:

- هل أنا كنت وقتها حاضرة أم هو كان وحده؟.

ليلي منذ الصغر كان لفم الجدة، ترتق السهد ثم تطرده بحكاياتها، وعندما أغفو كانت تحملني إلى سريرها الكبير بناموسيته البيضاء النظيفة، كنت في هذا الحيز أكمل ليلي بحلم على أثر مداعبة أناملها لرأسي، كانت تبتر خطوات الجن قبل أن يصلوا لي، وعندما ماتت، نقلت أمي مكان نومها بجواري، شعرت بثقل الوقت في البداية، فلصدر جدتي رائحة لم أجدها مع أمي، كانت رائحة معتقة من غرفة خزينها، وحكايات الزمن الذي تنتمي إليه، أما صدر أمي كنت أجد عليه رائحة سجائر والدي وعطره،

تلك الرائحة التي تخلو من الكلمات، فأكون في نومتي كجثة لا تدرك من اللحظة إلا غياب النور لحظة الانتهاء.

صوت نعاس أمي كان أشد وطأة وأسرع من صوت جدتي، كانت تنام قبلي، فتمنحني فرصة أن أتأملها، أدركت فيما بعد أن نصف ملامحها انتقلت ليحل محلها ملامح أبي، والنصف الآخر متعب جدًا، وهذا النصف بالذات اعتقلني كثيرًا.

حينما كنت أخاف وسط الليل، كنت أمد يدي لألمس وجهها، كانت تتنهد وتفتح عينيها، تنظر إليّ وتقول كلمتها الوحيدة :

- نم.

أصمت ولا أجيب، أضع علامة خوف كبيرة، وأغرق مع الوحدة في ليل طويل، وأظل أحرس وجه أمي حتى لا يغتاله حلم ثقيل، كنت أغيب كثيرًا فأكتشف تفاصيل الحياة التي لم تكن واضحة، أغيب وأحضر المفردات، كل شيء كان يعيد ترتيب نفسه، وفي الصباح أتبعها وهي تدخل غرفتها، لترتمي على سرير تصر على ترتيبه، وعندما تنتهي، تبكي حتى تفقد عيناها البريق الذي كان يميزهما، كنت بعد لم أعرف أن المرأة التي غاب عنها زوجها ستكون حزينة وتكون في حلم دائم به، تستعيد همس صوته، وعزف أنامله على جسد يمنحه نغمته التي تحييه.

والـدي كان يأتـي مـن شـرق البلـدة حيـث سـكنه، ليحتـل جسـد أمـي ليـلاً، يوقظهـا، فتمضـي كامـرأة نائمـة في هـودج الذكـرى، لتشـق طرقـات البلـدة وهـي تحمـل فـوق رأسـها مـاء غسـله.

في الصبـاح، أمـي لـم تكـن حريصـة علـى كنـس الـدار، ولا رش المـاء أمـام عتبتـه، وذات مـرة وجدتنـي أمسـك بالعرجـون، جـن جنونهـا، وطاردتنـي في أنحـاء الـدار، وعندمـا تعبـت جلسـت منهكـة، غيـر آبهـة بـي وأنـا أدنـو منهـا، الآن أتذكرهـا وهـي تخبرنـي أن بقـاء البيـت علـى حالـه هـو بمثابـة فعـل تحافـظ بـه علـى طيـف والـدي الـذي زارهـا!

كانـت تجلـس في أركان معينـة في البيـت، وتتـوه، كنـت أسـكت وأجلـس بالقـرب منهـا ولا أوقظهـا حتـى لا ينكسـر خاطرهـا، ولأظـل في حيـاد بـين مـا وجـد بداخلهـا وبـين مـا سـوف يكـون لـو أيقظتهـا، كنـت أفتـح البـاب لأشـد الضجيـج لداخـل البيـت.

حينمـا لا أجدهـا كنـت أبحـث عنهـا في أنحـاء الـدار، أختلـس النظـر في الغـرف الخاويـة، وفي الحـوش الـذي تسـكنه النخـلات، وجدتهـا مـرات كثيـرة غافيـة ورأسـها تسـنده إلـى جـذع نخلـة، وذات مـرة، رأيـت دموعهـا وهـي تنسـاب، فتعطلـت بداخلـي لغـة الـكلام، وبعـد صمـت مـددت يـدي ولمسـت قمـة كتفهـا: أمـي

وقـت أن رفعـتِ وجههـا أدركـتُ أنهـا الوحيـدة الناجيـة، ركلـتُ بزهـو كل مـا يـدور بداخلـي، فتبـدد، وتلاشـى مـا كنـت أود قولـه، ركضـت بعيـدًا لخـارج البيـت، وفي الطاحونـة القديمـة، تسـاقط كل مـا لمحتـه، ولأن الزجـر وحـده يقصـر عمـر اللحظـة، لـم أفعلـه، لأنهـا حينمـا نظـرتِ إلـيّ كان وجـه والـدي كامـلاً يحتـل ملامحهـا، رأتنـي وقالـت لـي:

-اصمت...

●●●

بائع الفينو

من الخارج تأتيه ضجة الصباح الوليد، متداخله مع صراخ عيال جارته مع بائع الفينو الصغير، خلاف تنهيه المرأة بجذب الكيس وقذف ثمنه على وجه السبَت الساكن على الكرسي الخلفي لدراجة والده الراحل.

تنفرج أساريره ويقول: نفس ميعاده، تمام الساعة ستة

الصغير أول بائع يأتي إلى التلة، يجري على إخوته وأمه الأرملة، يراه دائما وهو يقبل من بعيد، يدفع الدراجة ببطء، وصوته يعلو"الفينو"..يترك تندة الدكان بعد بسطها، مؤجلاً تنظيفها بالمنفضة الليف لما بعد مرور الصغير، ويتابعه وفاء لصداقته مع والده الذي مات في المحجر في الجبل الشرقي.

يراه فيستعيد ملامح صديق عمره، الصغير أخذ تقاطيع وجهه المريحة، ابتداء من سمرته الخفيفة، وانتهاء بالفلجة التي توجد بين قواطعه في الفك السفلي، وكما أخذ من والده، أخذ من أمه جرمها الهائل الذي جعله مختلفًا عن أنداده، وجعل كل من تقع عينه عليه، يظن أنه وصل سن البلوغ، وينسون أنه من شهرين كان يلعب مع الصغار في شوارع البلدة.

حينما يقترب الصغير من نهاية التلة، يدخل بيته، ويتناول دوسيه الأوراق المودع في خزانة كتبه، يفحص الأوراق بهدوء، شهادات ميلاد أبناء صديقه، وشهادة وفاته، وقسيمة زواجه، ولم يضف إليهم أي ورقة أخرى.

من أجل الحصول على معاش لأبناء الراحل، لم يترك بابًا إلا وطرقه، وفي كل مرة كان يسمع نفس الجملة: المذكور لا حق له في المعاش.

يتأمل الأوراق، فتخرج زوجة صديقه بأعوامها الثلاثين وبوجهها المستدير المشرَّب بحمرة، تمنح للفقراء كهدية، تجعلهم كثمار في أعين الناس، كانت أكثر وضوحًا وقت أن أخبرته بأنهم باعوا الصامت والناطق في البيت ولم يبق من أمل لهم إلا معاش يتمنون الحصول عليه من الحكومة.

استشار مأذون البلد، فأخبره أن أول خطوة للحصول على المعاش الحصول على رقم تأميني للمرحوم.

وصف له مكان التأمينات، وأخبره باسم الشارع، وبرقم البناية الكائن فيها المكتب، وقبل أن يتركه أوصاه باللين، وبجعل يده فرطة مع العاملين هناك، وأن الصغير لا يستهان به، فهو يملك مفاتيح الأقلام وكذلك الأختام.

لما وصل للمكتب، قصد البوفية، تعلق بالعامل الموجود داخله، وأخبره أنه وقع كطائر جريح من السماء وهو من تلقاه.

- تحت أمرك

- الأمر للّه من قبل ومن بعد.

أخبره بما يريد، فاكتسى وجه الرجل بجدية مصطنعة، فعمد إلى فك طلاسمه بقوله:

- حلاوتك عندي.

تتلاشى السحب من فوق وجه عامل البوفية، ويسحب قلمًا وورقة، يدون فيها بيانات الراحل، ويغادره، فيظل مع المكان، ساكنًا بجوار البوتجاز، تقتله أزيز المياه في براد كبير، يود لو ينزله من فوق النار، لكنه يخشى من غضب الرجل، الذي عاد والحسرة تستقر في عينيه:

- صاحبك مش متغطي

فغر فاه، فوضح الرجل:

- ملوش رقم تأميني.

يهز رأسه، ويكمل:

هو كان بيعمل فين؟.

- في المحجر شرق النيل.

نطق بها، بينما يد الرجل تمتد وتناوله الورقة، يأخذها ويخرج، يقابله الشارع فيجثم على صدره، وحتى ينجو، أسرع إلى موقف سيارات البلد.

تعيده طرقات على الباب، فيترك الأوراق على المنضدة، ويخرج وهو يقول لنفسه: الزبائن لا تأتي إلا في أوقات عجيبة.

على عتبة الباب يجدها بجرمها الهائل، يعود عدة خطوات، ويسحب الدوسيه، ويخرج، تظهر التلة مقفرة، لا أحد فيها، يخبرها بما حدث، فلا تتكلم، وتميل بنظرها إلى الأوراق المكفنة داخل دوسيه أصفر، تأخذه وتمضي، وهي تركض كريح تكسح أمامها كل ما خف حمله، يظل في مكانه، وحتى يخفف من وطأة ما حدث، يقتل كلمات لم يقلها، يتحرك في اتجاه المكان المشرف على النهر، ما إن يظهر إلا ويلمح يدًا صغيرة تلوح له وهي بين الرجال الذاهبين للجهة الشرقية من النهر، يد تستمر في التلويح، بينما صوت يولد، يسمح له بأن يكون حاضرًا، وهو يردد :الفينو.

●●●

مانيكان

لامس جسد ابنته الوحيدة المسجى والغائب تحت الملاءة ، صورة جعلته يفر من الموت ويتعلق بالوعي، وضع رأسٍه تحت الصنبور، ظل ساكنًا والماء ينساب بغزارة على رأسه، لم يرفعها إلا بعد أن نسي أمر دفنها، وأصبح لا ينقصه إلا أن يخرج، ويعلم الناس بما انتوى عليه، لكنه رأى أن يجلس في زاوية من الغرفة، حتى يطلع النهار.

فكر في عرسها الذي كان سيتم بعد أسبوع، وفكر في كلام الطبيب الذي أعلن بأن قلبها لم يتحمل كل الجهد الذي بذلته من أجل إعداد شقتها، وقبل أن يفارق الشقة، منحه تصريح الدفن، وبعد أن غادر الطبيب المكان، أخرج كل الذين هرعوا إليه، وأغلق باب الشقة، ومضى إلى غرفتها، أخذ فستانها الأبيض، وعلبة المكياج التي لم تمس، وملاءة جديدة من شوارها، فردها عليها، وبدأ يتأمل الأمر الذي ملك تفكيره.

اتصل بصديقه عالم المصريات، وأخبره بالفاجعة، لم يجد الرجل إلا كلمات الصبر، بثها له عبر الأثير، وقبل أن يقرر غلق الخط، علم بما يريده ، فصمت ، وفي النهاية قال له إن ما يفكر

فيه يعد مخالفًا للشرع، ولن يرضى به أحد، وأنه إذا كان يريد ذكراها، فهى كزجاجة العطر حينما تكسر، تظل رائحتها مقيمة داخل كل كيان طاله منها نفثة واحدة، ولما لمس عدم إقتناعه سأله:

- وما هدفك؟.

- أخلص لها.

كلماته لم تكن غريبة، فصمت ثانية، وشعر بوخزها، وتنهد وقال له:

- كل حب خارج عن المألوف هو جنون.

- جهز كل شيء.

وأغلق الخط، وفكر في جنون الحب، وفي قربه من بنته، كان يرافقها كل يوم إلى المدرسة، وكان يظل في مكانه بعد أن تنفلت منه، يتابعها وهى تركض، حتى تتوه وسط أندادها، وهو في مكانه كان يرى الآباء والأمهات وهم يتركون أولادهم على باب المدرسة ويمضون، كان يبتسم، ويقول لنفسه: الواجبات لا توجد محبًا، توجد مؤديًا لدور كلف به.

بعد وفاة زوجته، قرر عدم الزواج، لم يكن القرار صعبًا، ولم يسمح لأي فرد من عائلته أن يفاتحه في الأمر، غرق في العمل، وفي حب صغيرته، وفي كل ليلة كان يظل بجوارها، يبوح لها بكل شيء عن والدتها وعن أهله وعمله، كان ساحرًا، سلب عقلها، وحير كل الناس، فأخذت تقلده، فسلبت عقول كل من يستمعون إليها، وحينما سأله أحدهم:

- كيف فعلت هذا؟

ضحك وقال له:

- أفضل شيء تفعله حينما تقدم هدية ولا تنتظر المقابل.

عندما حضر صديقه صحبه إلى المكان الذي فيه جثمان ابنته، وقبل أن يبدأ الرجل العمل قال له إنهما يقومان بعمل ربما سيعرضه للمتاعب، فما كان منه إلا أن أخبره بأنه على استعداد لتحمل كل شيء، وحتى يدخل الاطمئنان قلبه أخبره:

- كل شيء يمكنه أن ينقلب على ذاته بحدوث شيء في غفلة منه أو بيد أخرى.

بعد ساعتين من العمل، انتهت المهمة، وبدت ابنته في فستان فرحها، كأنها عروس، اكتمال تلك الصورة، حركت مشاعر الرجلين فبكيا معا، ولأن الذكريات كزهرة، يفوح عطرها كلما لطمتها الريح، رغب الرجل في إسكات صديقه، فسأله:

- والخطوة القادمة؟

- هضعها في فترينة المحل.

في الصباح خرجت محمولة على كتف والدها وصديقه داخل صندوق، تبعه الناس وهم في حيرة من أمرهم ومن أمر والدها، تطوع أحدهم وأبلغ الشرطة، أبطأت في الحضور كالعادة، فمنحت الوالد فرصة ليثبت ابنته بفستانها في الفترينة، ولما وصل عدد كبير من الرجال مدججين بالسلاح، كان صديقه قد أخبر كل مراسلي الصحف ووكالات الأنباء فحضروا، والتقطوا له صوراً كثيرة، ونزعوا بعض الكلمات من الناس، بينما والدها كان رهن التحقيق داخل محله.

قال له الضابط بأنه خرق القانون بما فعل، كان يجب أن يدفنها، ولا يقوم بتحنيطها، ابتسم الرجل في وجهه، وقال له، وحده الحب يمكنه أن يكسر حدة القانون، وأنه بما فعل سوف يجعل بلدتهم مقصداً سياحيًا، وسيزدهر الحال فيها، اقتنع الضابط وخرج وفرق الناس إلا مندوبي الصحف، ووكالات الأنباء.

صديقه وهو يمضي مع الناس كان يردد:

- وحده يقول كن فيكون.

سمعه مغادر آخر فسأله عن قصده، فرد:

- الحب.

عاشق المسلسلات

تسلل من بين إخوته وغادر البيت إلي بيت جارهم؛ حبًا في مشاهدة مسلسل الساعة السابعة.

دلف من الباب الموارب، ووضع جسده في نفس الركن الذي تعود أن يوجد فيه بعيدًا عن طريق الداخل والخارج.

ظهر له المكان خاليًا، حمد اللّٰه أنه لم يصطدم بوجه صاحب البيت الذي يضمر له كراهية، لم يعرف سببًا لها، إلا كونه من أسرة فقيرة، وكثيرًا ما سمعه يوصي ابنه:

- متلعبش مع الأشكال دى.

في ركنه يستسلم للمشاهد، ويصله صوت احتكاك الملاعق بالأطباق، يتغلغل الصوت داخله فينفصل تمامًا عن مشاهدة المسلسل، ويغمض عينيه ويريح ظهره إلى الجدار.

كلما وصله الصوت منحه كامل كيانه، رغم علمه أنه لن يصدر منه أبدًا، فهو في حاجة لإشباع نفسه، قالها أول مرة أمام أمه فتعجبت من الجملة وحينما استفسرت عن مصدرها، قال لها:

- من المسلسل.

هي اكتفت بأن قالت:

- يكفينا طرد لعنة الفقر من البيت مرة واحدة كل أسبوع.

يعود من رحلته بركلة في جنبه من سن حذاء صاحب البيت، ضربة جعلته ينتبه ويفر وهو يلعن الأيام وما تفعله.

يجلس بين إخوته و ينصت لشجاراتهم المعتادة، وبذهن حاضر يستعيد آخر ما حفظه من بطل المسلسل:

- نخاف من الخوف فيكبر بداخلنا السكون ونظل نعيش في رقعة تضيق علينا حتى تأتي لحظة وننهي حياتنا بأيدينا.

لا ينسى ما يفعله كل صباح وهو في طريقه للمدرسة، لا ينسى وجه صاحب المطعم المبتسم وهو ينادي عليه من بين أصحابه، ليدس في يده ساندوتش الفلافل، فعل اكتسب صفة الدوام بعد يوم واحد من ضبطه وهو يجمع بقايا الأكل التي تركها الزبائن، لا يغيب عنه المشهد.

بعد أن راقب صاحب المطعم وفي اللحظة التي انهمك فيها الرجل في عمله، غافله ودخل ولمَّ بقايا الأكل في كيس، وحينما استدار وجد الرجل أمامه فارتبك، وألقى بما في يده وجرى.

ظل طول الليل يحدق في الفتحة التى توجد في منتصف الجدار المقابل له، لا يريد للصباح أن يأتي، وكلما صرف نظره بعيداً عن الوجه المحتل مكانه في الفضاء الظاهر له، كان يغادر مكانه ويحضر إليه، ينفعل في نومته، ويركل من يجاوره، فترتفع يد وتلطمه.

في الصباح لم يشغل نفسه بمتابعة المارة ولا بالبيوت الجديدة التي راحت تنمو في كل مكان، ولا بالسماء والطير المحلق تحتها، فكل هذا تلاشى وأصبح همه كله في كيف سيمر من أمام المطعم؟

وجد تسليته في المسلسل الذي يحبه، فركل صاحب البيت ومرت المشاهد في رأسه ومنها اختار تلك الجملة:

- الفقراء لا يعرفون طعم الكريز.

جملة شغل نفسه بها منذ أن قالها بطل المسلسل وهو يرددها، الآن هي حاضرة، سأل صديقه رفيق الطريق عن الكريز، تحول الصديق إلى كرة من لهب، لم يكف عن الضحك وهو يردد:

- كريز قال!!

قبل المطعم بخطوات، لاحت الفترينة والرجل يقف خلفها، لمحه يضع تلك الكرات التي يحبها في حضن الزيت، من المؤكد أنه سوف يطارده أو يجلده بكلمات قبيحة، وحتى لا يكون في مرمى

نظراتـه، جعـل نفسـه ﰲ الجهـة الأخـرى بينمـا رفيقـه كان مواجهًـا لعينـيّ صاحـب المطعـم.

قبـل أن يصـل إليـه، وجـده قـد رفـع وجهـه وعانقـه، فشـرع يـردد كل التمائـم التـي حفظهـا مـن أمـه ومـن رجـل طيـب يزورهـم، خلقـت الكلمـات راحـة داخلـه، وبقـي أن يخضـع نفسـه لتجربـة المـرور أمـام صاحـب المطعـم فتعلـق ببطـل مسلسـله واسـتعار منـه :

- العاقلون مملون.

طلـب لحظـات مجنونـة، فوضـع عينـه علـى حجـر صغيـر راح يركلـه، مخالفًـا بذلـك الفعـل وصيـة أمـه بعـدم ركل الحجـارة الصغيـرة بالحـذاء؛ حتـى لا يبلـى .

وكمـا توقـع، الـذي هـرب منـه لاحقـه، فـكان صـوت صاحـب المطعـم قويًـا وحازمًـا وهـو يقـول:

- تعال.

- أنا؟.

- نعم أنت.

بنصـف وعـي تقـدم وهـو يحمـل عـبء مـا فعـل، شـعر بجسـده ثقيـلاً، فبـدأ ﰲ اسـترداد النصـف الآخـر مـن وعيـه، وقبـل أن يصـل

كانت يد الرجل تمتد إليه بنصف الرغيف المحشو بالفلافل، ويده الأخرى تربت على كتفه وقال:

- ربنا يحنن عليكم يا ولدى.

بدت الكوة صافيه أمامه، وبدأ الألم يخف وبدأت خيوط من نور تظهر فتكوّن وجه صاحب المطعم، يمسك بطبق وملعقة ونفس الجملة التي يرددها حاضرة، يستقبلها منه ويسأل أمه:

- هوا إمتي ربنا يحنن علينا؟

أمه تبتسم وتقول:

- قريب.

يبتسم، ويلوح للرجل الواقف خلف الكوة، ويشد الغطاء ويسلم نفسه للنوم.

●●●

وحدها تمشي

مازالت النسوة يتذكرنها، حينما كانت تمر عليهن قادمة من بيتها، يلمحنها في الجمعة اليتيمة، وقد علقت السبَت في ذراعها والسواد يطوق جسدها الذابل، وبحر الطريق المترب تبقعه قروش الضوء المتحررة من بين غصون أشجار النبق والسنط.

يعرفون أنها عجوز تسكن فوق التل، وحيدة، مات أهلها، لا عيل ولا تيل، كشجرة بقيت وحيدة بعد أن أطاحت ريح عاتية بما حولها، ويعرفن عنها أن أولادها ماتوا جميعا، منهم من مات قبل أن يخرج من عتمة الرحم، ومنهم من مات عقب الحزقة الأخيرة، وأما من كتبت له الحياة فقد اختطفه الموت وهو في صدر شبابه.

●●●

النسوة يرونها من بعيد، فيخطفن صغارهن من الطريق ومن أمام العتب، ويدخلن الدور، تسمع هي أصوات جريان الترابيس في مخازنها، فتبتسم، وتكتفي بملاحقة الأغطية والدثارات المبسوطة فوق الجدر المنخفضة، والحبال المشدودة بين فروع الأشجار، تلاحق المزق والبقع الموشاة ببلل الصغار، يتعكر وجهها المتواري خلف طرحة شفافة بمسحة من الحزن وتقول " مساكين " تهز رأسها وتمضي.

في طريقها، تتفحص البيوت المشيدة من نفس طوب المدافن، بل أحيانا تشعر بأنها مدافن، تقترب جدرانها منها، تحاصرها بما تحمل فوقها من قش وربطات بوص، تحيط رقبتها، فيصعب عليها إخراج أنفاسها وكذلك استردادها، رغم هذا الشعور فإنها تسير وهي تحافظ على انتظام خطواتها ، وتحافظ على السبَت لكي لا يفارق ذراعها ويسقط، ويتلوث ما به من كعك وقرص محشوة بالعجوة.

●●●

تصل الجبانة، يتحلق حولها الصغار، يفسحون لها الطريق إلى المنامات المتجاورة، تجلس مسندة ظهرها لإحداها، وبيدها تزيح الغطاء من على حنك السبت، فتطل محتوياته، تشد العيون قبل الأفواه التي تتحرك متلمظة.

وإذا ما نفضت يديها من توزيع الكعك، كانت تجلس وحولها الأفواه تحثها قائلة "قولي خرافة "، تغمض عينيها، تلوح لها الأغطية، والأطفال وهم يُسحبون لدخول بيوتهم، فتقول لنفسها غداً إذا ما تعلموا المشي وعرفوا الجدار البعيد سيعرفون.

تبدأ بنقش حكايتها المسلية النابضة بالحياة عن الشاطر حسن وست الحسن، فإذا ما وصلت إلى " توتة .. توتة .. " هاج

العيال حولها يطالبنها بالمزيد من دكان حكاياتها، فتلين لهم ، إلى أن تشتد سخونة الشمس، فتقف، تمتد الأيدي الصغيرة ، تنفض الغبار عن الثوب الأسود وأفواههم تسألها:

- هل نراك ثانية؟.

تقول وهي تفارقهم :

- تعرفون مكاني.

●●●

في بيتها تعانق الأردية المعلقة على مشجب ممتد بين مسمارين على جدار، تقترب منها تحضنها، تبلل أطرافها برضابها، ثم تعود وتدفن أنفها بين طيات الأجزاء المبتلة ويضربها السؤال المقلق :

- أردية من هذه؟ "

لتتخلص من حيرتها ، تخرج.

في أول مرة حدث هذا، وقفت أمام بيتها، فأصبحت جزءًا من عتمة متشابكة، ورفعت عينيها بعيدًا، فاصطدمت بالبيوت المشيدة بالطوب النيئ، فمشت نحوها ببطء، وعلى مقربة من آخر بيت اختارت حائطًا بجواره نخلة، بركت عند زاويته المقابلة للطريق المترب وأعطت ظهرها لجذع النخلة، كانت بقعة مظلمة، سمح لها المكان أن تراهم ولا يرونها.

ركزت نظرها على الضوء الخافت النافذ من الأبواب المفتوحة، رأته يسقط علي الوجوه المكسوة بالبقع وبالتراب الكاسي المُضيع لملامحهم، سكنت فسمعت همسًا، مدت أذنها بعد أن حوطت عليها براحة يدها، وصلها نتف من حكايات، تخرج من البقع المظلمة الواقعة على يمين المستطيلات المدهونة بالضوء الشاحب، ومن ضعف الأصوات عرفت أنها تخرج من أفواه العجائز، تقص على سمع الصغار متونًا من كتب الجن والعفاريت، سرعان ما ضاع الصوت تحت وطأة هبة ريح، كسحت الوجوه المبقعة، ساحبة معها مستطيلات الضوء لتضعها على وجوه ناحلة، أيقنت أن الريح لعبت بألسنة الفتائل المشتعلة، وإذا بهرج يعلو وأقدام أخذت تقفز فوق خطوط الضوء، أيقنت أنهم يقصدون النخلة التي رمت الريح ببعض ثمرها، فجمعت نفسها حتي أصبحت جزءًا من الجدار.. وتشرد، تراهم حولها تحت النخلة في الليالي المظلمة ووجوههم تشع بالفرحة يطلبون منها المزيد من نبع حكاياتها الذي لا ينضب أبدًا، يسمعون بأذن بينما الأخرى متجهة للبيوت، تنتظر أي صوت يجمع شتاتهم لدخول الأقبية

●●●

في طريق عودتها والسبَت في يدها خاوٍ، تجد الأغطية قد جمعت، والأبواب مواربة، والنساء والصغار والعجائز حول الصرر المبسوط عليها الأقراص والكعك المحشو بالعجوة.

وجوههم مشدودة ناحية الأرض، يأكلون بنهم، عيانها تصطادان فرحة من عيون الأطفال، تبتسم وتقول:

- غداً يعرفون النخلة.

●●●

لعلوعة

– تعبت يا أمي، جسدي ما عاد يقدر على السير، أريد الراحة بعض الوقت.

حررت الكلمات رأسه من مشاغل كان يفكر فيها، لوى عنقه، شاهد وجهًا مستديرًا، وشعرًا مسترسلاً، يتحرر من تحت طرحة تسجنه، فمص ريقه، وتابع بهدوء شفتين يصبغهما حر الصيف بلون دموي شهي.

– إنه لأمر غريب أن تتيح كنوزها.

قالت نفسه، فسارع بإسكاتها، ومنحها كامل وعيه، رآها تلامس بمؤخرتها أرضًا متربة، استفزته، فتقدم، قبض على لحم ذراعها، وطلب منها الجلوس على حصير السمار.

في البداية تمنعت، لكنها طبقا للعبتها، قامت وقبضة اللحم مسجونة في يده، وإحساسها بأنها قريبة من إتمام صفقة بيعها يكتمل، وقبضته المملؤة بلحمها، خير دليل على استحسانه للبضاعة.

عرفت سطوة جسدها في عينيه، شرعت في استثماره، مدت ساقيها، رأى حركتها، مسح على شاربه، صادف فعلها ضرب مهرته الأرض المتربة الواقفة عليها

طال وجهه بعض الغبار المتصاعد، توجه إليها، ضربها بالعصا فوقفت، وشرعت في لعق قمتيّ شفتيها وحواف فمها، وسط دهشة لعلوعة التي سكنت.

عاد إلى الحصير، وسألهما:

- أغراب؟.

- ما غريب إلا الشيطان.

ردت الأم، وهمت بالوقوف، تقيسه بما تفعل،عرفت لهفته، من اكتمال صورة ابنتها في عينيه، لهفة سارع لتأكيدها، طالبهما بالبقاء حتى زوال القيّالة، نظرت لعلوعة لأمها، لإكمال خطتها، فدق قلبه خوفًا من رفض الأم، وليجبرهما على البقاء، عرض عليهن إحضار بعض خيرات أرضه، لم ينتظر ردهما، استدار واتجه إلى الحقل، عاد بعد دقائق، في حجره عنقود عنب، وحبات من الطماطم، ناول الأم ما أحضره، وانتظرته وهو يخلص صرة معلقة في جذع نجلة، فكها، ظهر الخبز، وقطع الجبن، وبضع بيضات مسلوقة، طلب منهن جبر الزاد، مدت كل واحدة إحدى يديها، فبدا في عينيه الرضا، كونه أبقاهما بعض الوقت.

وهو يكمل جدل حبله، قال:

- أي وجهة تقصدان؟.

قالت الأم وهي تمسح جانبي فمها:

- بلاد الله واسعة.

كف عن الجدل، تأمل ملامحها، أيقن أن خلف الجلد المغضن مكر امرأة، تخطط لأمر ما، لاكتشافه، ركز في عينيها، رأى ضعفًا يناديه، تجاوزها، وحط عينيه على وجه لعلوعة، وجدها تأكل بنهم، تأمل ملامح وجهها، قال لها:

- تريدين المزيد؟.

أومأت برأسها بالنفي، تراقص قرط في أذنيها،لامس كل واحد خدًا متوردًا.

جمعت أمها ما بقي من طعام، أعادته إلى الصرة، انتهت، فألقت بجسدها بجوار ابنتها، قالت لها:

- خففي من حرارة جسدك ببعض الماء البارد.

قامت والجلباب يغيب بين فلقتين، خايلته، أحس برعشة في عضوه، ارتجف خوفًا من افتضاح أمره، مد يده وحبسه بين ساقيه، ووزع نظراته بين مهرته العائدة لضرب الأرض، وجذع لعلوعة المنتصب بالقرب من الزير، أحست به، فمدت يدها وغرفت من ماء الكوز براحة يدها، غسلت وجهها، ومسحت صدرها، شاهدها

والنار تأكل جسده، ارتفعت ألسنتها وقت أن رفعت جلبابها، فظهر جمار ساقيها، تنهد، وقال:

- الحر شديد.

المرأة الخبيرة، عرفت أن (الحلو) بقي عليه دقة، بفمها فعلتها، بعد أن صوبت عينها على قرص الشمس، قالت:

- استعدي.

نسي النار، وتعلق بالماء المعول عليه لإطفاء لهيبه، طلب منهما البقاء في ضيافته، نظرت الأم لابنتها التي انتهت من ستر كل جزء تحرر من جسدها، وقالت:

- رأيك ؟.

- ما تريدينه يكون.

خلص قدمي المهرة من حجالها، ووضع على ظهرها صرة الهدوم، وجرها وسار، خلفه لعلوعة وأمها، يتبادلان همسًا، لم يتعب نفسه في معرفة مفرداته، هز رأسه وقال:

- لا يخصني.

●●●

رعشة

ارتعشت في اللحظة التي لامست أنامله منتصف ظهرها، وهي مغمضة العينين، فكرت في أنها مستعدة لأن تمضي إلى أبعد الحدود، ستجتاز كل الأماكن المفخخة التي لا تحب الوقوف عندها، خصوصا لمسته.

حينما غادر زوجها الحجرة، لم يدرك أنه يوجد حياة تخالف المألوف، نقل حياته كلها من غرفة النوم إلى غرفة أخرى، وغرق في حياة بدأ يرسمها بإتقان، وحينما كانت تسأله العودة، كان يرد بمزيد من أسئلة، فقررت ذات لحظة حاسمة أن تحجم عن فتح فكرة البعد والقرب، وأصبحت تمارس فعل التعايش بروح نصف مكسورة، وبجسد تقترب منه كل ثلوج العالم، عند عودتها من العمل، تتسلل إلى غرفتها، من أجل قضاء بعض الوقت وحيدة، لتسترد الهدوء، وتصر على التجرد من كل ملابسها، تنهار على السرير، وهي تدندن بكلمات الأغنيات التي تحبها، وعينها على الجدران التي تفصلها عن أفراد أسرتها، لا تعرف لماذا كانت واثقة بأن هناك من يترصدها، وفي كل مرة تقرر فيها التنفتيش عن العين المتلصصة، تنسى، أو تخجل من تلك الفكرة اللعينة.

ومنذ ساعة، بعد وصولها، وتجردها من ملابسها، غيرت من طقسها، فبدلا من تسليم نفسها لفراشها الوثير، منحت جسدها لسطح المرآة المصقول، وقتها لم تعلم من يكلم من، ظلت تنظر إلى جسدها، وأدركت أن الثلج المتراكم لن تبعده كل الأيدي التي تتسلل إليها في أحلام لم تبذل جهداً من أجل التخلص منها.

كان يمكننها أن تضلل العين لو خصت أجزاءً بعينها، ونظرت إليها، لتخبرها أن الجمر مكمنه سر، لكنها لم تفعل، جلست على كرسي التسريحة، وعاودتها فكرة التلصص، تخيلت عيناً تمر على ظهرها المستقيم، المتعلق به ردفين ضغطا على سطح الكرسي، وبرزا قليلاً، للحظات خافت، وكما يحدث كل مرة أبعدته، وألقت بشعرها على ظهرها بعدما حررته من تسريحة الكعة التي تلازمها طوال يوم عملها.

فجأة استقر الصمت المعبق بالحذر، حينما وصلها الصوت:

- ماما أجدل لك شعرك.

تنفست الصعداء، واستراح داخلها من فكرة التلصص، وهزت رأسها، فتسلم الصغير خصلات الشعر، لمه، وجعل ظاهر يديه في عناق كامل مع سطح ظهرها، وهي عاجزة عن الكلام، فقد كان داخلها ينضح متذكراً اليد التي لامست لحمها.

●●●

الخلبوص

يراودها وهي تعتلي بقدميها الخدادية، وأصابع يدها تغوص في طراوة محتويات الكيس، ملمسه يدفعها إلى التخمين.

"هل ما زال كل شئ علي حاله ؟ أم أن الزمان فعل فعله معها، وأتلف ما بالكيس حتي وإن تم ذلك فالأشياء بقربها ومقدار ما تحمل من ذكريات وعطر فواح يشد العقول قبل القلوب".

حقيقة تجعلها تشد الكيس، وتتراجع وهو في يدها، تجلس على حافة السرير، حائرة مترددة، بين سحب مصدر تعاستها وبين إرجاعه،لا تعجبها تلك الطريقة في التفكير.

"فما دام قريبا من يدي، فلا بد من إخراجه".

قرار تتخذه، وتنفذه، ليصبح القميص بين يديها، تُجري عليه عينيها، ترى كم الأوساخ المستوطنة لحمه، حتى أن لونه الذي كان..

" ما لونه ؟".

تفكر:

" نعم لونه كان بلون الدم، كان يعانق لحمًا خمريًا، وكان قادرًا على إعادة الحياة لجسدها".

تتركه على السرير، وتتحرك، تقف أمام المرآة، ترى جسدها مطبوعًا بكامل تفاصيله.

"كان مثل جسدي".

حقيقة تجعلها تمد يديها، تمررها على تفاصيل البدن الأربعيني، تعانق وتعصر كل قطعة فيه، تهز رأسها، وتعود لأفكارها.

"لا لم يكن جسدها كتلة من الحزن ، كان رغم شظف العيش يملك حيويته، أما الذي أراه فهو بلا روح، ذهب يوم أن امتلكه كسيارته".

تعود إلى القميص، ترتديه على اللحم، وتخطو إلى المرآة، تنظر، تراه يبتلع جسدها الممتلئ الأبيض، منظره يحرك إحساسها بأنها تشبه أمها.

" نعم هي".

تنطق وتتراجع، مع سؤال يولد.

"إذا كانت هي فأين الصغيرة التي كانت ترافقها ؟".

تواصل تقهقرها جهة السرير، وسبابتها تشير إلى رأسها، ولسان حالها يقول:

"الصغيرة هنا تسكن".

ترمي بجسدها على السرير وتستدعي الصغيرة، تراها وهي ترتدي ملابسها الزاهية ذات الكرانيش، بيدها الكيس الحاوي القميص دموي اللون، لاهثة تمضي خلف أمها التي لا تتورع عن زجرها إذا ما شعرت ببطء خطوتها.

ذات مرة وهما في طريقهما للبلدة العامرة بقساريتها، شدها تجمع من بنات في مثل عمرها، تسمرت أمامهن تتابعهن وهن يلعبن باربعة حجارة مدورة، كل واحدة في حجم الليمونة، أعجبتها خفة الأيدي في التقاط الحجارة، بطرق مختلفة. في وقفتها نسيت أمها التي رجعت إليها وأمسكت بذراعها بقسوة، جذبتها وهي تردد: " همي يابت ".

قدم أمها تعرف طريقها جيدًا، لا تكف عن العدو إلا حينما تدوس تراب المدينة الصغيرة.

كانت تحافظ على مسافة معقولة بينها وبين أمها، عينها على الميدان الكبير، منه تنفذ إلى حارة ضيقة، تقصد بيتًا ذا واجهة مزينة برسوم كثيرة، ضاع أغلبها، وما بقي منها لا يفصح عن نفسه بفعل اللون الأسود الكاسي عليها بسبب حريق قديم، قبل الولوج لا بد من وقفة أمام البيت، وقفة تقول لكل من يراها أنها هي صاحبة البيت، بعدها تدفع الباب، ترى الصالة ممتلئة بأكوام القمامة والمخلفات الآدمية، تندفع وهي توزع نظراتها بالتساوي

بين أركان الصالة الواسعة، تحافظ على جمود ملامحها المحايدة، فإذا ما فحصت المكان تراجعت، وتناولت الكيس، ودست في يدها قطعة معدنية، تكون كافية لإشاعة المرح في نفسها، ودفعها إلى الخروج، لتمرق بين عربات الكارو والدواب للشطر الثاني من الحارة، عينها على حانوت الفلافل، يراها صاحبه يشجعها بابتسامة حنونة، تلمس في وجهه حبًا أبويًا، يأخذ منها القطعة، ويناولها قرطاسًا تسكنه قطع الطعمية وقطع المخلل، تأخذه وتعود أدراجها للبيت، تجد أمها قد غابت في حجرة جانبية، أنظف حجرة في البيت الخرب.

تُسكت هواجسها ، وتتمدد وهي ترتدي القميص، تغمض عينيها ، يسرقها النوم تري نفس الحلم.

تبدو وجوه لها من الأطواق الثلاثة، كلها بعيون مفتوحة تنظر، مادة حبال الرؤية، تدور داخل دائرة الرقص بجسدها البض، على وقع المزمار البلدي، والطبلة والطار، وصوت الرباب، الدقات عالية، تشبه لحد كبير دقات الزار، لكنها تعرف طريقها الحتمي لجسدها، تكون بمثابة سوط سوداني مسقي بالزيت على جسد مارق.

تدور والعيون مفتوحة لا ترمش، ولا أحاديث تتبادلها الأفواه المفتوحة على وقع جسد يبدو كالسوط، يصلهم لهاثها، يطال الآذان المفتوحة، فتتحول الساحة إلى حال من الهياج غير

المحسوب، يسقط فيها كل الوقار، مأخوذة بسحر جسد يصنع أسطورته، وإخراج ما وقر بداخله من شياطين، وقوة خفية.

في لحظة قربها من الجهة المتركز فيها العجائز، تبدأ الهمسات، ترهف السمع، ويقر قرارها أمامهن، متناسية صياح الجهة الأخرى المطالبة بحقها في الرؤية، وجودها له من القدرة لأن يحول اللحظات إلى زمن لا يمس إلا بالنظرة، وبالجسد كونه قريبا، مباحة كل تفاصيله، تقوي صلة قديمة، بين أمها والنسوة العجائز، يشددنها إليهن، بنظرات محملة بالبكاء علي زمن كان، وصحة كانت، وفرحة كانت ..لا تدوم كثيرا ..كلمات تنفلت من إحداهن ، تكون أسرع النساء إلى نقب جدار الذكريات، بكلمة أو إشارة، المهم في النهاية، تولد الكلمات، وتظهر اليقظة..

" تذكرين ؟"

" ......"

" هي بعينها"

" بنتها"

" هذه"

" نعم، انظري إلى جسدها، هي نفسها كأنها خلقت من جديد" .

تتـرك كل اللغـط، وتطـوق وجـوه الرجـال، تنـادي بعينيهـا علـى الخلبـوص، مـن يشـق الأطـواق الثلاثـة، ويبـرز لهـا بوجهـه المختفيـة ملامحـه بفعـل الدقيـق.

تعود من شرودها، ترتدي القميص، وفوقه العباءة وتخرج.

●●●

الفخاخ تفقد صبرها

وهـو يتقـدم مـن البـاب، رافقـه سـؤال وحيـد مـلأ رأسـه: هـل كسـرها يصـب في خانـة انتصـار العائلـة؟.

يهمل صوتـه، ويسكن عينـه في ثقب البـاب، يـرى خـواءً ممتدًا من خلف البـاب إلـى الشـرفة المسيجة والمفتوحـة على ملقـة[٧] تستوطنها الخضـرة، و يـرى الكنبـة وبجوارهـا خـوان صغيـر عليـه زجاجـة بلاسـتيكية مـلأى حتـى المنتصـف بالمـاء، وراديـو قـديم لا يعمـل، وفي الجانـب البعيـد غيـر الظاهـر لـه ثمـة سـرير صغيـر، تجلـس عليـه.

وجودهـا كان بقـرار مـن والـده، لـم يجـرؤ أحـد مـن قاطنـي البيـت علـى التصـدي لـه، فبعدمـا جرهـا وصعـد بهـا إلـي تلـك الغرفـة، لـم يبـق إلا جملتهـا الأخيـرة تسـكنهم:

- ممكن تسلب حريتي، لكن إحساسي هو ملك لي.

ملكتهـم الجملـة ولـم تتركهـم إلا مـع رؤيتهـم كبيرهـم وهـو يغـادر البيـت، وقتهـا تحكمـت فيهـم رغبـة معرفـة خـط سـير لحظاتهـا الأولـى في سـجنها، فوقـع الاختيـار عليـه هـو.

---

٧ فضاء واسع من أرض زراعية

يحاول من مكانه أن يحافظ على حالة التوازن بعدم السماح لأي شيء مهما كان أن يخلخل داخله، ويؤثر على الكائن الثائر الذي يسكنه.

يريد أن يكون داخله مرآة لا يرى فيها إلا نفسه، أما هي فلا يريد لها أن تغادر حدود تلك الغرفة، ويتمنى ألا تقلقه بنظرة فتجعله يسترد ذكرياته، تلك لا يخشى منها، لكن الخوف كل الخوف من أن يعيش في تلك الذكريات، ومع تلك الكلمات التي كشفت له حكاياتها، فهي لاتغادره، اكتشف معها كل أخطائها، وبعدها لم يعد هناك أي مجال للشفقة، يتذكر الآن الكلمات:

- لم أعد استوعب شيئًا، لم أعد أحس بما هو جواري، أحس فقط بهمسك، وبالهدوء عبر موسيقى ترفعني إلى عالمك.

تلك الساعة التي قرأ فيها الرسالة التي أرسلت إليها وضلت الطريق إليه، تذكر فيها صلته بها، وتذكر الأعوام الخمسة التي تفصله عنها، والتي جعلته مسموع الكلمة لديها، وجعلت هناك مساحة من الود، عبرها ولج باب غرفتها ذات مساء قريب، قالت له وهو يقف أمامها:

– زيارة غريبة.

ليس بينها وبينه أي خطوط حمراء، كل شيء قابل لأن يصبح مادة للحديث، لم يخف عنها حقيقة ما اكتشفه، وهي لم تنكر.

يعيده صوت ارتطام مخنوق، يقول لنفسه: إنها ترتب سريرها بيديها.

هو يعرفها، فكم رتبت ، وكم غسلت، ولم تكن تخجل حتى من ملابسه الداخلية التي كانت تسرد وقائعه السرية، الآن يخشى من عودته لتلك الغرفة من ذكرياته التي تشده ـ دائما ـ إليها.

أحيانا يتغلب عليها وأحيانا تهزمه، وحتى لا يلاقي المصير الأخير يعود للثقب، يجد الخواء كما هو، والحركة التي ولدت ماتت، إلا أن حمامة استقرت على الشرفة، يعرفها إنها حمامتها التي تقيم أغلب اليوم في غرفتها، بوجودها ينبه حواسه، وخصوصا العين المتلصصة لتكون أكثر يقظة، فبعد لحظات سوف تتحرك في اتجاه الشرفة، لتجلس بجوار حمامتها، هكذا يرسم مشهدها.

يصله ركز قدميها على الأرضية الخشبية، فيركز حتى لا يفقد أثر وقع النظرة الأولى.

الحمامة تتحرك ضجرة ، فالانتظار الأخرس الذي يعرفه بدأ يفتك بها كما يتلاعب به، يخشى على نفسه فيوصي عينه:

- يا نظرة لا تشتهي قربها، فقط راقبيها واهربي من فخاخها.

يسكت سقسقة الخوف ويتابعها وهي تخطو نحو الشرفة، ثم وأظافرها تمتد لتلامس الحمامة القلقة فتستكين مستسلمة

لهـا،الآن يـدرك أن لا أحـد يسـتطيع أن ينهـي ذلـك العنـاق، وبنفـس الإحسـاس يـدرك أيضـا أنـه سـيظل في مـدار الانتظـار يتابعهـا هـي وحمامتهـا.

وحتـى ينقـذ نفسـه مـن الاختنـاق يسـحب عينـه مـن علـى يدهـا المسـتريحة علـى الحمامـة، فتمـر علـى الكـف الأخـرى التـي تنـام علـى فخذهـا، يـرى أناملهـا تضـرب علـى لحمـه ضربـات ماكـرة كأنهـا توجـد خلفيـة موسـيقية، ينسـاب غيابهـا مـع الحمامـة في دنيـا هـي وحدهـا تـدرك حدودهـا، تبـدو لـه لحظاتهـا كهدنـة مـع الوقـت إمـا تبقيهـا علـى مـتن الحكايـة وإمـا تجعلهـا في الهامـش. ربمـا هـي الآن ترحـل عـن الحكايـة كلهـا، فالقـدرة لهـا حـدود، خصوصـا أنهـا الآن في منعطـف قـد لا تعـود منـه للماضـي. صـوت نفسـه يصيبـه برعشـة فيتذكرهـا حينمـا طالبهـا بالعـودة ومغـادرة طريـق القلـب حتـى لا تهـدم جـداران البيـت، يومهـا وقفـت أمامـه تنصـت إليـه:

- ارحلي عن سماء الغريب لتحافظي على نقاء وجودك بيننا.

- ومن أدراك بأن الرحيل سيكون لأرض غيره.

- ولم لا؟.

- ولم لا يكون رحيلي خوفًا عليه هو.

- لكني أخاف عليك.

نبرة صوته وصلتها، تحمل معاني الوصايا لا الخوف، فصمتت، وكابد هو حتى يقف عند الحد الفاصل بين السلامة والندامة، سألها:

- أين الغريب الآن؟.

أشارت إلى صدرها، وأكملت:

- ملكني فلم يترك لي شيئًا.

ماء مالح يتسرب إلى فمه فيشعر بغصة، يفارق الثقب فتصدمه العيون المنتظرة، يجدهم كما هم يدورون في نفس المساحة التي حددها لهم، تبدو أمام عينيه تلك المساحة كبيرة مقارنة بمساحة الغرفة..

يركل المنتظرين بنظرة مشحونة بسخرية ويعود للثقب، يجد الأنامل قد غادرت فخذها ومنهمكة في النقر على زجاج الشرفة، كأنها تقيم صلة بينها وبين صوت توجده هي ليعبر عن نفسها.لا يفعل هذا إلا من ملك حريته، وقاوم عوامل تستبد به، هي تفعل هذا. يسكت حديث نفسه ويتمنى في تلك اللحظة لو خرج صوته، يطالبها بالكف بصيغة الأمر، فتلبي هي طلبه وتؤكده بقولها:

- حاضر.

حينما كان يجدها قد عادت لفعل حذرها من ارتكابه، كان يسألها عن عودتها فتبتسم وتقول:

- لا يعيب الإنسان أن يكون نفسه ولو للحظات، وأنا أسرقها منكم.

يخشى الآن من مشهد دموعها، هذا ما بدأ يسيطر عليه، وكلماتها تقلقه وتزيد من مأزقه:

- حينما يحبس الإنسان دموعه، يرتكب جريمة تفوق إطلاقها.

يراها تتدحرج على خديها، بينما اللحظة لا تنسيها ذلك الإيقاع الذي أوجدته بنقرها على الزجاج.

مع هذه اللوحة، تقفز أمامه أمه، يراها بجوارها، فالحزن الشفيف واحد.

يشعر بأنه يتلاشى في قاع مزدحم بأشياء كثيرة.

إحساسه بجسده راح يتلاشى، أصبح ثقيلاً لدرجة عدم الشعور به، والدموع بدأت تحجب عنه الرؤية من الثقب، رؤية تخبره أن توقعاته أسوأ مما تخيله وتخيل المنتظرين خلفه، فيمد يده في جيبه، يُخرج المفتاح، يدسه في الثقب، يسد منفذ النور، ويديره.

صوت انسحاب اللسان من مخزنه، أقلق الحمامة فغادرت الشرفة، بينما إيقاعها لم ينته.

●●●

الغريب

بدأت القرية تنتبه إلى ذلك الغريب الذي بدأ يجلس في ركن من أركان المقهى العتيق، بين يديه جهازه اللوحي، لا يرفع عينيه عنه إلا ليشرب الشاي أو يحتسي قهوته، أو يتبادل كلمات قليلة مع النادل.

صاحب المقهى، كان يعاني من قلة رواده، وحينما لمح تردده، اهتم به كثيرًا، كان يكثر من المرور بجواره، ذات مرة ابتسم له، شعر الرجل بالسعادة بادله نفس الابتسامة، وتصور للحظة أنه يجلس مكانه، امتلأ بهذا الإحساس والباقي كان من تصوره، فرض من جانبه صورة وحيدة، أعلنها للرواد القلائل حينما قال:

- وقع في عشق المقهى.

لم يقف كثيرًا أمام الكارهين لما قال، ومن أكدوا الفكرة، لأنه كان يعنيه كثيرًا أن يجد حقيقة تقوم على تلك الكذبة.

هناك من ذهب لمؤازرة صاحب المقهى في رأيه، من أجل الحصول على مزية ما، أًصبح الولاء لفكرته النصيب الأكبر في جلساتهم، جذبوا الكثير من الرواد الجدد، دفعهم الفضول لرؤية

هذا الغريب، وكحماية للفكرة بدأ صاحب المقهى في غياب الرجل يردد الحكايات المرتبطة بالغائب، كان ينسجها مستعينًا بخياله، وببعض الصور التي كان يلمحها أثناء مروره بجواره.

ولأنه يدرك أن الإنسان العاقل لن يدخل الشرك مرتين، لم يلتفت إلى الفئة التي تؤيده، بل وضع كل همه في التيار المعادي لكل ما كان يقوله، وحتى لا يفقد التأكيد، عمد إلى الدخول لبيت الرجل، قص على الرواد بعضًا مما يدور بين الرجل وأهل بيته، وبينه وبين جيرانه، وبينه وبين زملاء العمل، وقتها قويت معارضة الفريق الذي يخالفه، وأيقن أنهم ربما تدفعهم فكرة إظهار كذبه إلى البحث عن الحقيقة بمراقبة الرجل، وبدأ يقلل الاهتمام بهم، بينما كان يضخم الحكايات التي أوجدها.

وخلاف الفريقين، وجد فريق ثالث، كانوا أقل في العدد، لكنهم قالوا:

- لن نحرم الفريق المؤيد من ارتشاف الكذب، ولا الفريق المعارض من قول لا، لأنهم أيقنوا أنهما لن يعيشا من دون الحقيقة.

ظل الوضع مستقرًا، حتى ظهرت مع الرجل امرأة، تكبره في العمر، كانت راقية، ترتدي أغلى وأثمن الملابس، وتضع عطرًا هامسًا، من أول مرة رآها فيها صاحب المقهى، أضمر لها

الكراهية، اكتفى يومها بأن رحب بالرجل، ولما منحهما ظهره كان المقهى قد أصبح مكتظًا، وأصبحت جلستيهما مثيرة للفضول.

مع تكرار حضورهما معا، شعر صاحب المقهى بالحيرة، أصبح لا يُرى إلا مهمومًا، يفكر في سؤال وحيد:

- من تكون تلك المرأة؟.

كان لا بد أن يصمت، فصمت، ليس من باب الموهبة، لكن من باب مراقبة الأمر، رغم ذلك أصبح مع توالي أيام صمته، يتعرى أمام الرواد، خصوصا الفريق المؤيد له، بدأت عيونهم تتقاذفه بكلمات الشفقة التي لم يجرؤ أحدهم على قولها، سرعان ما استسلم للأيام، فكانت تؤاخي بهدوء بين ما كان وما وجد، لتكون واقعًا جديدًا، لمسه هو بنفسه حينما أطلت المرأة كحجر من كل عين من عيون رواد المقهى.

جلس يراقب ما يدور، وبين وقت وآخر، كان يعود لقص نتف من حكاياته القديمة، متعمدًا عدم الخوض في الأجزاء التي تتعرض للنساء اللاتي رسم لهن صورًا كثيرة.

وحتى يبتعد كثيرًا، وضع بعض اهتمامه في مراقبة كل زائر جديد، يتابع مقدار التغير الذي يطرأ عليه بعد زيارتين، عدد الملاحظات التي دونها وجدها متشابهة، راقب الفريقين، وجدهما

قد نحيا كل الخلافات التي كانت بينهما جانبًا، وكل الحكايات التي دارت حول الرجل، فظهرت له المرأة في صورة كائن ضخم يخرج له لسانه تحديًا.

وردد داخله السؤال:

- متى سأهزم؟.

كان السؤال بداية لقتل الكذبة التى أوجدها، بالعثور على سلاح آخر، أو خديعة أخرى، أو كذبة أخرى.

ركبه الهم، وأصبح دائم الحركة في المقهى، حركة لم تكن هادئة، بها الكثير من القلق، تحاشاه الرواد، كانت الاحتمالات تداعب رأسه المتعب، وداخله يقول: سوف تسقط.

وجاء الجواب، وصلته ضحكة قوية، رجت أرجاء المقهى، كأنها الريح القوية، جاءت ومن دون تفكير لتحتل كل شيء في المكان، وجدها فرصة ليعلن سخريته:

- سحرتكم

أدرك أن كلمته غيرت القلوب نحوه أكثر، تراجع إلى النصبة، والتصق بالجدار، وكبر بداخله الخواء.

●●●

وصية

ذات نهار لم تشرق فيه الشمس غادر البيت يحمل إرث من رحلوا قبله، وحينما حل على المدخل الأول للبلدة التي يوجد فيها طريده، وجد على مدخلها زحاما شديدًا، قال لنفسه:

- سأجلس حتى يفرغ الناس من أمرهم.

الوقت كان كفيلاً بتسويات نهائية لما يدور، ولأنه يدرك هذا، اختار مكانًا يوفر له الأمن، وبينما هو يجلس في مخبئه، اقترب منه كلب، خمن أن الجوع هو من دفعه للتسكع وسط الخطر، منحه عن قناعة نصف ما يحمل من طعام، أكل الكلب وشبع ثم نام بجواره، ولم توقظه الصرخة الوحيدة التي وصلته من هناك، برق في ذهنه همس الخوف، كبر وقت تفرق الحشد.

حبه لجملة: لا يحس بألم الإنسان إلا إنسان مثله، هي من حركته في اتجاه البوابة، رأى من خرج ليطلبه جثة هامدة، زم شفتيه وفر دمعه، وسرعان ما رضخ لليد العفية التي أمسكت به، ولم تدعه إلا بين أربعة جدران، لا ينفذ منها الضوء.

فكر كثيرًا أن يساوم الوقت ليعيده على باب بيتهم، فيكسر حدة وطأة كلمات أمه، ويعود لدفء غرفته، لما ظهر له، قال: ما

فات فات، تدثر بغطاء رث، وحاول النوم، فلم يتح له، وحينما مل فتح عينيه فوجد أمامه الكلب الذي تركه في مخبئه، اختاره نديمًا، وقال له إن كل ما حدث يغضبه، وسؤال وحيد يتربص به: متى تنتهي ولائم الخيبة التي تلاحقه؟

في اللحظة التي تداعت فيها الأسئلة، شرع يرتبها، وعندما فقد الإجابات، شعر بأن هناك جدارًا وهميًا يفصله عن الحديث إلى الكلب، فقرر أن يوجد صلة بينهما، تجعله يترك مكانه ويكون هناك، لم يجد إلا سحر الحكاية، تعلق بها، وسعد بأنه سيكون في منطقة لن يحاربه فيها أحد.

حكى عن أحلامه، والبنات اللاتي أحبهن، والمرأة الوحيدة التي نام معها، والبيت القديم الذي كان يخفي فيه سرقاته الصغيرة، وكتبه الممنوعة، والتنظيم السري الذي انضم إليه، والأوصاف القبيحة التي رددها عن الحكام، والمسن الذي استعار منه سيرة البنات، ليكتب روايته التي ظل يبحث عنها زمنًا، والميت الذي يزوره، وخوفه من ظله، وأمه التي لا تتقن إلا تاريخ الراحلين.

هز الكلب ذيله، فأدرك أنه يطلب منه أن ينهي لعبته، ويخبره بأنه هرب من وجوده إلى عوالم لم يعش فيها، والمطلوب منه أن يخبره، من هو؟

قبل أن يجيب، انشق الجدار والتهمه، فهمس: من تلك اللحظة سيوجد المستقبل، وبدأ التفكير في فكرة الاختفاء، يقتنع بها، ويدرك أن ما عاشه قبل تلك اللحظات كان الوهم الأكبر.

قرر التجرد من الذات التي يحملها، والتفكير في أن يكون شخصًا آخر، ولا يعرف لماذا أهمل الشهوة، وكذلك الرغبة، وفكر في الانتقام، فلم يجد إلا صورة الفأر، وخشي أن يكون أول الهاربين من السفينة الغارقة، فتركه ولمح على الجدار الشمس تولد، وأمه في أرجاء البيت ترفل في ثوب أسود قديم، تتمهل كعادتها أمام صور الراحلين، يحزنها بقاء الأصوات التي ما زالت تتردد منها، قد يسمعها العابرون بجوار الجهة الأخرى من الجدار، فيتخيله أحدهم موجة هادرة وصلت إلى شاطئه في صيف بعيد.

يتنفس في عمق وهو يتابع حركات والدته، ويبتسم للخيالات، لأنه يدرك أنه بعيد الآن عن كل خصومه الذين وجدوا في حياته، من جراء إصراره على محو صفة الجنون عنها.

ومع توالي الأيام، أصبح يحدق أكثر في الجدار، فيرى ضمن ما يراه رجلاً غريبًا، يأتي بملامحه الحزينة، يشاركه المكان ويقص على الكلب حكايته، وسرعان ما استسلم له، وفي اللحظة التي ينتهي فيها الرجل، تغيم الغرفة، فيصحو، يجد نفسه يحتضن الكلب، وفي فمه مرارة غريبة، تصاعدت مع استمرار الرجل في

الحكي، ولما أصبحت معتقة، صرخ ، حتى لا يقع في عتمة المرض أكثر، طلب النجدة، وقبل أن تصل إليه الأيدي حل صمت عميق عليه، ودخل في إغماءة.

وضع في غرفة في مستشفى السجن، فكان كدُمية وسط بياض مبالغ فيه.

ولأنه من نسل عائلة تجيد التنصت من خلف الجدران، استطاع أن يلتقط صوت أنين مكتوم، حاول بكل ما لديه من قدرة تخيل أن يصل إلى حقيقة ما يدور، وحينما فشل، رضي بالصبر كعلاج.

وأثناء ذهابه إلى الحمام، رأى في الغرفة المجاورة له جسداً نحيلاً ملفوفًا في ملاءة خفيفة، ووصلته رائحة، أيقن بأنه يعرفها، إلا أن دفع الجندي له، جعله لا يأخذ الوقت الكافي ليعرف، وعلى باب الحمام، قرر أن يكون معتنقًا لمبدأ: البادئ أفصح، فقال للجندي بعد أن منحه سيجارة وابتسامة:

- حتى الحزن له مذاق حلو حين يمعن فينا.

فرد الجندي:

- كل ما لا نراه يوجعنا.

فسأله عن الأنين، فقال الجندي:

- ملعونة أخرجت جثة من قبرها، وأضرمت فيها النار.

- ومم تشكو؟

- هي لا تشكو، هي تردد جملة وحيدة

- ما هي؟

- كن رجلاً.

●●●

بهجت

تعجب رواد مقهى التصليبة من تلك العلاقة، وأصدروا حكمهم البات: ملاحيس مثله.

وأصبح من الصعب محو تلك الفكرة، فهم أغلقوا الباب نهائيًا، لكنهم تركوا بابًا تتسرب منه الذكريات.

في الجلسة على المقهى كنا نختار ركنًا بعيدًا عن دخان النرجيلة، وثرثارات التجار والأعيان التي لا تعرف إلا الكلام في الربح والخسارة، كنا نتحدث في أحوال العباد، ومظاهرات الطلبة، وخلافاتهم على خلفية الفكر السياسي.

تلك الجلسة كان يلجأ إليها صغار الموظفين في الجمعية الزراعية ومكتب البريد والمدرسة الابتدائية.

تبادل الأفكار فيما بيننا كانت لحظاته لا تخلو من نشوب الخلافات، على أثرها يتراشق الطرفان الاتهامات فيما بينهما، كنا بعدها نهدم تلك الجلسة، ونمضي إلى بيوتنا وفي نفس كل فريق بعض العتاب والوعيد، تحايلنا على هذه المشكلة، وقررنا أن نضع فاصلاً عقب كل خلاف.

كنا ننظر إلى رواد المقهى، نختار أحدهم، نفشي كل سر وصل إلينا عنه، سر خلف سر نحصل على حكاية ، وكثيرًا كنا نخشى من اللوم والعتاب إذا ما تسربت حكاية تسبب لصاحبها الحرج، كنا نعجز و يعجز حامل السر، ويجهض محاولاته ويدخل خلف ستارة ويغير في سره ، يخففه ليصبح مقبولاً، وبعدها تودع في خزائن ذكرياتنا، تظهر في القصص وفي الأشعار وفي استشهادات الندوات في مركز الشباب وفي المعسكرات.

ونظرنا ذات يوم فلم نجد من نمارس عليه سلطة النميمة، على الفور بدأنا نتبادل الاقتراحات، حدقت العيون في كل مكان وأخذتنا أفواه الطرقات، صفع الخواء وجوهنا وكاد يفت من عضدنا لولا الأمل وقيمته في الحياة.

غادرنا المكان وسافرنا إلى كل البيوت نطلب أحد قاطنيها، ولأننا حبسنا أنفسنا في أضيق حيز يستقر فيه إدراكنا بالناس، نسينا ركنًا لم نتخيل وجوده، رغم أنه جزء من مشهد كبير جامع، رأيناه يقف حائرًا، تهللت أساريرنا وخرج صوت أحدنا طغى على كل شيء:

- بهجت..تعال.

كان من عادته ألا يظهر بعد غروب الشمس، وإذا تأخر خرجت أمه تطلبه فهو وحيدها وحبه يعمر قلبها، يبادلها نفس الحب وينصاع لأمرها كطفل صغير يخشى أن يفقد يدها فيتوه في السوق.

حاول أغلبنا فك تلك الشفرة التي جعلت امرأة جميلة توقف عمرها على ولد معتوه، وترفض الانتساب لظل رجل آخر، كل من حاول وقف على شاطئ الفشل، واستسلم لتلك الجملة التي وجدت لنفسها طريقًا: الولية شدته إليها بوتد.

تقدم منا يجر جسده الضخم، تسبقه رائحة كريهة جعلت الرواد يشيحون بأيديهم، ويتركونه لنا فنستقبله محاطًا بأسمال الغير التي تهدى إليه بعدما تستوفي غرضها، قدماه عاريتان فهو منذ صغره لم نشاهده ينتعل حذاءً، ومن الغريب في الأمر أنه لم يكن بمفرده الذي اقترب منا، كانت طفولته كلها معه حضرت كشمس تشرق ولا تغيب، فهو طفل المسرات والبهجة، حيث لا عراء ولا حرمان، وحيث كل الأيدي تمتد بالخير إليه.

حينما وقف بيننا كان هادئًا أكثر مما يجب، وكان في عينيه شيء لم نتبينه، لأننا كنا مشغولين بالبحث عن نتف الحكايات المرتبطة به والتي كانت جزءًا من تاريخنا، كونه كان أحد أطرافها.

عاجله أحدنا بسؤال:

- مالك؟

سمع، فسقطت دموعه، منحناه وقته حتى يفرغ من البكاء، نشيجه جعل عيون الرواد تسلط علينا، ويصبحون أقرب إلى

إعلان ثورتهم على الجلسة وعلى ضيفنا غير المرغوب فيه، لذلك دنا بعضنا من بئر الحكايات المرتبطة بهم.

وتحت ضغط حالته انفصلنا عن الأمنية التي من أجلها نادينا عليه، وبدأ ظهره يشهد سباقًا محموما للتربيت عليه من أيدينا التي سكنتها كل وسائل الرحمة والحنان، وكأننا نتضامن مع مظاهر البؤس مجتمعة في جسد بهجت ضد فئة أصبحت كارهة لوجوده، ولأن الفواصل وضعت لتبتر بين وضعين، كان السؤال للمرة الثانية، بلهجة حازمة:

- مالك؟

- فاطمة.

فاطمة أمه، امرأة أربعينية، تعرف جيدًا أنها جميلة وأنها تفاحة آدم المشتهاة، كان يلزمها اليد التي تعيد لها أنوثتها المستلبة بفعل فقر كتب عليها وعلى وحيدها بعدما فقدت زوجها في حادث تصادم بين جرار وشاحنة نقل ثقيل، كان هذا هو اليوم الوحيد التي رأت فيها طرقات البلدة أم بهجت على طبيعتها، جسدها كان منفلتًا، وشعرها كان مهوشًا، وقدماها كانتا تتعاركان مع فردتيّ الحجل الذي كان يعكس أشعة الشمس، يومها تبعتها العيون حتى مكان الحادث، وهناك امتدت الأيدي لتبعدها عن المرحوم الذي هالت من أجله ملء

جوال من رماد كان مكومًا على حافة الجسر، وبعدها خشيت من لعبة الأيدي التي امتدت إليها، فاحتجبت في دارها وقالت لكل من طرق الباب بغرض أو بغير غرض: تزوجت ده.

وكانت تشير لبهجت.

- مالها؟

- تعالوا.

وقف وراح يشدنا، فمضينا معه في مشهد غلب عليه صمت ألجم الجميع، كان ثقيلاً لدرجة أنه منعنا من تبادل حتى الكلمات العابرة مع بعضنا .

وفي اللحظة التي وصلنا فيها إلى بيته، شدنا فدخلنا معه، رأينا فاطمة في عباءة بيتي رقيقة تفصح أكثر مما تستر، وما وجدناه خلق أردية من الثلج وضعت على أجسادنا، لدرجة أن طالب الطب الذي بيننا لم يكسر جليده إلا بهجت بجذبه نحو جسد أمه الذي تطوع أحدنا بالبحث عن شيء يسترها به، فلم يجد إلا حِرَامًا[٨] قديمًا.

حينما انتهى من فحصها، طلب من أحدنا أن يحضر سيارة ليتم نقلها لمستشفى المركز، وعلل طلبه بشكه في جلطة بالقلب،

---

٨ مفرش يغزل من صوف الغنم

وكمن أصابتهم رصاصة واحدة في نفس الوقت تبادلنا النظرات، وانسحبنا للخارج وبهجت تركناه بجوارها.

في المستشفي حدقنا في وجه بهجت، خرجت من جواره وجوهنا، رأينا الأطفال - التي تنتمي إلينا - يعابثونه ويضحكون، ورأيناه وهو يلقي حذاء جديدًا بينما أحدنا يحفظ مكانه، ليأتي في القيلولة ويسحبه من قلب النخلة، وآخر يقتسم معه مصروفه ويشتري رغيفًا بما ناله، وثالث يستفرد به وتحت جدار بيت خرب ينام معه، ورابع يصطحبه للعمل في حقلهم، يسلبه أجرته التي أخذها من والده في نهاية اليوم ويكتفي بأن يمنحه قطعة جبن قريش وبصلة.

صور مخزنة تلاحقت فأحببناها وأصبحت جزءًا من جلستنا بعد ذلك، اكتشفنا فيها أنفسنا، كيف كنا وكيف أصبحنا، تغيرنا نحن، وما زال رواد المقهى يقولون كلما جمعتنا معه جلسة: هما زيه ملاحيس.

●●●

تلصص

زوجة عمى بثينة، كانت أجمل من في الدار، جاءت من بلدة تجاورنا، والدها كان يملك الكثير من العقارات في المدينة ويدير طاحونة في بلدهم، وكان لا يبخل على أولاده، حتى بعد أن تزوجوا جميعا، أقر لكل واحدة وواحد منهم مبلغًا، كان هذا المبلغ يصل إلى زوجة عمي، فتنفقه على ملبسها، والاعتناء بنفسها، وحتى لا تبتعد كثيرًا عن نساء البيت، اعتمدت وسيلة مهمة، كانت لا تبخل عليهن، كل ما تشتريه من أدوات زينة، يصبح مشاعًا لهن، لذلك كانت غرفتها ليلة الخميس، كمقهى، تقوم هي بوضع الميكاب بنفسها لكل واحدة تريد تزيين نفسها.

في داخل غرفة الاستحمام، وجدتها مختلفة، يتبدد كل الفرح الذي كنت أراه على وجهها، وتبدو وهي جالسة على كرسي الحمام من دون أن تغير ملابسها كأنها تتسكع في طريق لا يعرفه غيرها، تبدو السعادة غائبة، أو هي من كانت تستدعيها، لتظهر بمظهر مختلف، وهي في هذا الوضع دائما تقودني إلى شيء لم أكن أفكر فيه من قبل، فكرت في لمس جسدها وهو مغطى تماما بالرغوة.

وحتى لا يأخذني ما كنت أتمناه، أعود وألتزم بالهدوء، وأظل أراقبها حتى تنهي تلك الجلسة، وتنزع ملابسها، جسدها كان أكثر

بياضًا من جسد أمي، أظل في مكاني أتصارع مع جسدها، هي لم تكن تعتني بأي جزء كما تفعل الأخريات، لم تكن تريد أن تجعل من نفسها نموذجًا، كانت تريد فقط أن تكون بثينة الجميلة في عين زوجها، وأنا أرسمها لأول مرة في كراسة الرسم، لم أسجل غير الوجه، والشعر الأصفر المنسدل على جانبي وجهها.

في غرفتها كنت أتواجد فيها كثيرًا، كانت تحب مغازلتي، وأمي كانت لا تغضب، هي الثانية بعد جدتي التي كنت أغيب بين ذراعيها، كنت بحاجة لهما، وهي كانت بحاجة لسد غريزة الأمومة، كانت تملأ غرفتها بألعاب الأطفال، واستمرت الحياة، إلا أن جاء اليوم الذي طلبت مني فيه جدل شعرها.

سألتني:

- تعرف؟.

قلت:

- نعم.

ووقتها كنت أكذب، وهي كانت تريد تدليلي بطريقة خاطئة.

كانت رائعة وهي تجلس على كرسي التسريحة، وأنا أقف خلفها بالكاد أصل لرأسها، وخصلات شعرها في قبضتي، كنت أنظر جهة اليسار وجهة اليمين، هي لأنها لا تريد إلا إسعادي، لم

تدرك فحوى هذا الفعل، لكن لحظتها اكتشفت أني أحبها مثل أمي، وأنها فوق الجميع، وخلف عينها التي كانت تظهر لي كنت أرى تلك المرأة المختلفة التي كنت أراها داخل غرفة الاستحمام.

وعندما دخل عمي ووجدني أقوم بالعمل بإتقان، تغير وجهه، وسألها عما يرى، قالت:

- يساعدني.

قطب ما بين حاجبيه، وقال:

- دعابة جيدة

وغادر الغرفة.

وفي اليوم التالي وصلتنا أصوات العراك بينهما، ذهبت أمي، وحينما عادت كانت بثينة معها، والدموع تغسل وجهها، وشعرها غير ممشط، أخبرت أمي أن عمي بدأ يقلق بسبب الإنجاب، ضحكت أمي، وقالت لها:

- ضعي أعصابك في ثلاجة.

- فعلت هذا لسنوات.

- كوني حريصة على حياتك.

كانـت زوجـة عمـي في ورطـة، صمتـت طويـلاً، وقبـل أن تتكلـم، أخـذت نفسًـا عميقًـا، وأنـا كنـت كمـن وضـع رأسـه في إنـاء مـاء، لا يعـرف مـن الحيـاة إلا أن يكـون واقفًـا في الحـد الفاصـل بـين الحيـاة والمـوت، صعـد كل هـذا وهـي تقـول:

- أصبحت لا أشعر به، ولا بجسدي.

- القلق والتوتر سيدمران جسدك.

لـم تصـدق، حتـى جـاء اليـوم الـذي رأيتهـا تخـرج مـن غرفتهـا وهـي بقميـص النـوم، يُظهـر الكثيـر مـن جسـدها، وبـدأت بجمـع كل القـش والـورق الملقـى أمـام البيـت، وهـي تدنـدن بكلمـات لـم أسـمعها، حتـى والنسـاء يحضرنهـا كانـت تدنـدن ونظراتهـا زائغـة، أمـي قالـت:

- لا بد أن تذهب للطبيب.

سـخيف بحـق العـبء الـذي يذهـب العقـل، ويجعلنـا ننسـى أننـا نحمـل فِكَرًا يمكنـه أن يسـعدنا، هـذا مـا قالـه الطبيـب لعمـي الـذي لـم يحضرهـا للبيـت، فضـل أن يتركهـا في بيـت والدهـا حتـى تشـفى.

قليل من أهل البيت من زارها، أمي قالت لهم:

- يبدو أنكم لا تعرفون من أمر الحياة شيء.

حقيقة وجدتها واضحة، وهن يذهبن لإلقاء نظرات الوداع عليها وهي على فراش الموت، كنت حاضرًا وقتها، بقيتْ بعيدة بوجهها، لم تعانق إلا وجه أمي، وأنا كنت أعانق كامل جسدها، ويدها مضمومة، أحاول جاهدًا ألا أفقد تركيزي، كنت خلاف عادتي، كان تفكيري في اتجاه واحد، لكن تغير كل شيء، وهي تقول:

- احرقي ملابسي، لا أريدها على جسد أخرى.

كان هذا أسوأ شيء سمعته، فلن يكن متاحًا أى فائدة لأي امرأة سوف ترتدي ملابسها من بعدها، فلا شيء يضاهي تلك اللغة التي تولد بين الجسد وما يستره.

الحزن دام شهرًا في البيت، وأمي كانت آخر من تخلص من ملابس الحداد، وأنا كنت دائم البقاء خارج البيت لفترات طويلة، فالأمر لم يكن يتعلق بالفراق بقدر أنه يتعلق بفقدان الحياة، هي كانت مدهشة لأنها بقيت معي، وجهها وشعرها المسترسل على جانبي وجهها، وأشياء أخرى لم أجرؤ على رسمها.

●●●

خداع

سقطت سحابة وتغلغلت عبر دروب المدينة، الكل راح ينشد مخرجًا، مجرد كوة صغيرة تكفي لمرور شعاع وحيد، شعاع وحيد متمرد يقود عينًا وحيدة ضالة تنتظر لتعبر، والشوارع ترفض تمددها أو امتدادات الأذرع المنبثقة عن لحن الانتظار المؤرق لصف كان وما زال أمام الموظف المشحون بكل أنواع الغضب، وما يدور في الخارج لم يكن في باله ولا في بال من ينتظر صك المرور عبر بوابات تحترم كل ما هو رسمي ومصدق عليه بخاتم يحمل شعار الدولة، والعين التائهة في الصف والتي كانت في الخارج تتسكع، سكنت في ركن تنتظر السحابة لتنقشع، أو إذن المرور، وحتى لا تنتهك ستر الانتظار وقعت على وجه يتجمل أمام مرآة كانت في حجم القطعة المعدنية التي انتهى زمانها، سكنت بجوار الرمش المنتصب والمشرع، حده لما طال كان أحد لبنات الصف المؤرق والمتململ أمام الموظف، هام وغادره نصف عقله، ومع توتر الموقف علت الهمهمات مع أول دفقة لدخول موجة من سحب قاتمة في لون رماد المحرقة.

هجمت السحب من الباب ومن فواصل الجدران ومن تحت أرضيات المكان الخشبية، تزاحمت وهو هناك ما زال يراقب، يتمم على كل أجزاء جسده، خوفًا من لحظة زحام يُسلب فيها أي

جزء، فالحكايات المتواترة خارج المدينة كثيرة، ويصعب التدقيق في مفرداتها، ومعرفة حقيقتها، وهو قنع بما سمع وقال : الحرص واجب، ولن يضر التمسك بهذا المبدأ وإضافته لجملة الواجبات، وها هو يمد يده، يتمم على الأجزاء الظاهرة والمتوارية، البارزة والغائرة، وما كان لينسى تلك الأوراق، فض المظروف، راجع كل ورقة، ولما انتهى، نظر فإذا به وسط كتلة رمادية هائلة، ولا أثر للصف، ولا للموظف الرسمي، ولا للسيدة التي أصابت بحد رمشها الكثيرين، تماسك حتى لا ينتهي من ضربة قوية من قلبه، وتشبث بمقعده، وتنفس بعمق، وحينما ارتخى صدره خرجت دفقات الهواء لافحة، تلاقت مع حدود السحب الملامسة لوجهه، فارتبكت وارتفع صراخها، وأمام عينيه وجدها تتحول لقطرات ما، تهطل في خيوط متصلة، وإذا به يجد نفسه أمام شاطئ وعلى حافتة صاحبة الرمش الحاد، في مشهد دق له قلبه..

أنصت : ها هو الكيان والعالم، سأرى ماذا تفعل، ممتاز قالها، وتراجع قليلا، فبدت السماء فوقه ساكنة، والبحر به بعض هدوء، لدرجة يمكن أن يثور في لحظة تشربه لمفردات الكيان، بذل جهداً وحينما أرسل نظرة قال يا الله، كان الكيان قد سمق وسد كل الوجود، وأصبح وحيداً أمامه، والبحر لا وجود له، تناثر وأصبح بخاراً، ارتفع، لقبة السماء الرمادية، كان لا بد له أن يدع العين، ويمد يده، محاولا زحزحة الكيان ليخلو الوضع للبحر الذي انفلت من المكان، فجلس الجسد في نفس مكانه لم يكن يستجيب، ولم

يكن أمامه إلا أن يستدير، ويشير للبحر، أن تحرك قليلاً، لتغير وضعك أنت، فهى راسخة، انظر، فنظر البحر، واستدار وحينما شغل الجزء الأكبر من كدر لم يسجل وجوده بعد، ابتسم، وقال: مكانى هنا، ولن أتجاوزه، فعيني كبرت، والكيان ما زال شامخ. ثم سكت وقال: أريد دفقة من وهج، لأخفف من احتقان داخلي، فإن استمر السكون اندلعت ثورة، وكنت هناك في السماء، فحياتي عبرها الكثيرون، ولم يبق من أثرهم شيء، وتلك طبيعة العابر، أما الراسخ، فهو يحتوي ولا يدع فراغا من بعده، ابتسمت العين وهي خلف الكاميرا، ونظر، فإذا الجسد قد عانقته دفقة من نسيم، شد من وطأته، فبرز الكيان، نطق داخله، وقال: فينوس عادت، ولما اقترب أكثر من العين، رأى كيانًا في كامل زينته، بدا له الأمر مختلفًا، هو لا يريد تصديق ما يري، فانفلت العقال من العقل، أصبح يخشاه منذ زمن، لكن الجسد الذي تحرر من قيوده، خاطبه: احبس تلك اللحظة، هيا، لا تتردد، تراجع وصرخ: وهل سيبقى كل شيء كما هو، فيما بعد ...قال الجسد :أنا كما أنا وتلك عادتى، ضج البحر، وقبل أن يعلن ثورته، انطلق الفلاش، وعاد على أثرها، وخشى العقاب، والعيون تحدق فيه خشي أن توسوس له نفسه بأن يراقب فارق التوقيت بين المدن في تلك اللوحة المصلوبة على الجدار.

●●●

النص المؤرق

عند حافة الحقل وقفت حيث بقايا البيت القديم، مرتْ عيناها على الخلاء ، رأته مرآة ناطقة تختزن داخلها طيفها، كان كالطريد يتبعه قلبها، وحتى لا تتسع دائرة الفراغ تعلقت به وبأسرارها.

بدأ ينمو بداخلها شيء وهى تتقدم من الحوش، راح يقتات من أكثر من لوحة، لاقتلاع وجوده، تلمح نفسها صبية تملأ المكان بدفء نشاطها، وفي عيون الجميع كتنور فيها خبز الجائعين.

تقول لقِدْر اللبن، قبل أن تجلس على الكرسي الصغير: أرى في وجهك أصداء الحلم، فأنتفض.

كل الألوان لديها كاذبة، إلا اللون الأبيض الذي عشقته، لون ما زال يجود به جسدها.

لحظة جلوسها تحت البقرة تمد خيوط الشوف، وفي الفراغ المحتشد بين عينيها والضرع ترى الوجه الحليق وهو يردد:

– لا فائدة، الحالة غريبة.

تمـد يدهـا للضـرع، تـرى طرقـات سـارت عليهـا، وبيتًـا تركتـه ورجـلاً أحبتـه، ناولهـا علـى البـاب حقيبـة ملابسـها، فأخفـت دمعـة، تسـقط كلمـا فتحـت الكتـاب المـودع فيـه صورتـه، في كل مـرة تراهـا تـردد: القلـب يحرقـه البعـاد.

اليـد الآن تمسـك بالضـرع، يصلهـا رعشـته، تحسـها في صدرهـا، تغمـض عينيهـا وتعـود لصورهـا، تـرى نفسـها تغـادر عيـادة الطبيـب، وجملتـه تتـردد داخلهـا: اللـبن في صـدرك هيفضـل علـى طـول، وهيكـون سـد بينـك وبـين الانجـاب.

سـارت تحـت سـماء يحجبهـا الغيـم، فتغافلهـا شـجاعتها، وتتقيـأ العينـان خيطـين مـن مـاء، يمتـدان علـى خديـن ذابلـين، بهـدوء تمـد يدهـا، تتحسـس دائـرة صدرهـا، تلمـس البلـل وتهمـس لنفسـها: هـذا الطبيـب لا يعـرف مـا أنـا فيـه.

والحقيبـة مستسـلمة ليدهـا جلسـت بجـوار عجـوز البيـت، وبعـد أن سـمعت منهـا، قالـت لهـا إن الشـجرة قـد يُحجـب عنهـا ثمرهـا، لكـن خيرهـا يظـل موجـودًا في ظلهـا، والحيـاة لـن تقـف.

همسـت لصورتـه وهـي تحبـس نفسـها في غرفتهـا، سـأقول لـك سـرًا، أنـا لـم أكـره البلـل، وليـس لـدي مشـكلة مـع الحيـاة، مشـكلتي في العيـون التـي تشـاهدني الآن، مشـكلتي هنـاك وليسـت معـك، فأنـت

خذلتني، وهم يكذبون عليَّ بترديد: أنتِ بخير. صدقني لا أريد أن يفارقني البلل، فهو يقول لي أنتِ ما زلتِ حية.

ويدها الأخرى تستريح على حلمة ثانية، كانت العيون تتابع البهيمة التي جربوا معها كل الأيدي الموجودة في البيت، خذلتهم جميعًا، وظل القِدْر خاويًا، وهي في مكانها ثابتة نظرها لا يفارق مكان وليدها الذي بيع منذ يومين، لم تستفزها رائحة البخور ولا الحجاب الذي عُلق في رقبتها، فكان القرار حتميا: نبيعها قبل أن يقتلها ضرعها. وتُرك الأمر لعجوز البيت، التي التفتت إلى السلم المؤدي للرواق[٩]، وحتى لا تصدمهم دهشة الاختيار، قالت: امنحوها فرصة، هي تستحقها.

بكلتا يديها تقبض ـ الآن ـ على الحلمتين وظلها يُفرش على الضرع الموجوع، تلامس بلطف وتمسد ثم تركل كل الصور وتشخب.

الخطان الأبيضان متصلان يسربان رائحة طازجة، تقتحم أحاسيس كل من يراقبها.

وهي محاطة بنظرات الجميع ترسم في رأسها النص المؤرق، والسؤال يتردد داخلها: هل يموت اللون؟.

●●●

٩ غرفة توجد فى الدور الثاني تُفتح على طرقة تسمى بسطة

رائحة ثقيلة

- أصعب ما في الحياة أن يكون أحدنا آخر نسل عائلته، وحينما يموت لا يجد من يبكي عليه.

تلك كانت المرة الرابعة التي يذكر فيها كلمة الموت، وهو ينام في سريره، حوله على الجدران صور من رحل من أهله، منذ أن بدأ الألم يعرف طريقه لجسده، انتابته حال يأس شديدة، ترك كل شيء في الشقة من دون أن ينظفه، حتى ملابسه متناثرة في كل مكان، وفوارغ المعلبات يضطر لإزاحتها بقدمه ليمر.

كل من يعرفه، يدرك أن جسده عزيز عليه، لا يطيق بوادر أي عارض يلم به، لذلك كان يحتفظ بتليفونات الأطباء من يعرف أنهم يوافقون على الذهاب لبيت المريض، وكذلك تليفونات بعض سائقي التاكسي، لينقلوه إلى المستشفى العام إذا لزم الأمر.

كل هذا لأنه كان من القلائل ممن يحسبون للأيام حسابًا مختلفًا، يدرك حكمها، ويدرك كيف يتعامل معها، وفقا للظرف الذي يوضع فيه، فهو عاصر وشاف الكثير من البشر، شاهد حياة الترف التي كانوا يتنعمون فيها، وفي المقابل وقف على حال الفاقة حينما ذهب عنهم كل شيء، أكثر ما أحزنه رؤية من نزلت درجتهم وهم يتساندون على آخرين من أجل قضاء بعض

الحوائج، ربما تلك نعمة بقيت لهم، هكذا كان ينبه نفسه، ويتذكر ابنته الوحيدة التي تزوجت، وهاجرت مع زوجها عقب فوزه بمنحه دراسية في دولة غربية، وعندما نال درجته، وقع في غرام الحياة هناك، فقرر البقاء.

في البداية شقت عليه فكرة البعاد، لكنه في النهاية رضي بمضغ الواقع الجديد، وقتها لم يكن قد أحيل إلى التقاعد، كان عمله، تسليته الوحيدة، وحائط الصد ضد كل ما يعكر صفو وقته، وفي اليوم الذي ترك فيه عمله، بدأ هاجس المرض يطرق بابه.

في تلك الأيام، أشار عليه أحد الزملاء، بالبحث عن بنت الحلال، فكر طويلاً، واهتدى إلى عدم جدوى الارتباط، خصوصا أنه لا رغبة لديه في النساء.

في إحدى المكالمات التي جرت بينه وبين ابنته، طالبها بالحضور، كادت أن ترفض متعللة برعاية ولدها، تأثر بما سمع، قال لها:

- أتمنى أن أراك قبل أن يسترد صاحب الأمانة أمانته.

كانت المرة الأولى التي يتحدث فيها عن الموت، صمت قليلا، تسربت الرهبة إلى روحه، وبدأ يرتعب من تسرب الكلمة إليه، فهو لا يعرف إلا الانتماء للحياة.

في ذلك اليوم خرج، وانضم إلى رفقة المقهى، جلس بعيدًا عنهم، ولم ينتبه إلى أى جزء من الحوار الذي دار بينهم، وحينما عاد لمأواه، شعر بألم خفيف تحت القفص الصدري، لم يهتم كثيرًا، وأرجعه إلى احتساء القهوة على معدة خاوية، غلى قدرًا من الكراوية وارتشفه وهو يشاهد فيلمًا قديمًا، وقبل أن يقرأ كلمة النهاية، ساءت حالته وشعر بالألم يأكل دائر معدته كلها، وبعد محاولات عقيمة من أجل إسكاته، استعان بنوتة التليفونات، وطلب طبيبًا.

جلس في الصالة يتوجع ونظره لا يغادر الصور المشبوحة على الجدران، ولأول مرة يتذكر بأنه آخر رجل من نسله عائلته، خشي من الإفراط في الحزن، وقف عن المتابعة، وراح يتحرك ببطء ممل في الصالة، مساحة ضيقة لكنها كافية، سمحت له بالتفكير في أشياء ينتظر فعلها، تخلص من تتابع الأمنيات المؤجلة، لحظة دخول الطبيب الشقة، وبعد أن جس وقاس، نفض يديه وأخبره بأن الألم مصدره القولون، وطالبه بالراحة، وعدم التعرض لما يؤثر على أعصابه، وعدم أكل المتبلات، والشطة، وناوله الوصفة التى تشمل العلاج، وغادره، سكنت انفعالاته قليلا، واستطاع أن يغفو قليلا، وعندما استيقظ، كان الألم قد وصل لأشده، في تلك اللحظة وهو يستند إلى حافة السرير، فكر في وجود رفيق معه، صمت قليلا، بحث عن السبب، وردد:

- يناولني رشفة ماء حينما تأتي ساعتي.

زلزلته تلك الفكرة، كونها المرة الثانية التي يفكر فيها بالموت، وسأل نفسه: هل كان موجودًا داخلي؟ وكان منطويا على نفسه، والآن يظهر.

أربكه التفكير، وهو ينتظر سائق التاكسي الذي طلبه، لينقله إلى المستشفى المركزي، قتله الانتظار، فكر في طلب سائق آخر، لكنه عدل عن الفكرة، ولم يفعل، وفي نفس الوقت لم يجد داخله أية رغبة تذكر في فعل الأفعال التي يدمنها في أوقات الانتظار، تنهد وقال:

- الفتور بداية طبيعية للموت.

حضور سائق التاكسي منعه من التفكير في المرة الثالثة التي تسللت من داخله كلمة الموت، غادر الشقة وهو يتساند على السائق الذي أظهر له الكثير من الود، وإمعانًا في تعميق هذا الشعور، قرر البقاء معه حتى الانتهاء من الكشف، وكان في صحبته في مركز الأشعة، لعمل أشعة مقطعية على البطن، ولما عاد به إلى المركز الطبي، سأله الطبيب:

- والدك؟.

تلعثم، وفي النهاية قال ما شعر به:

- مثل والدي.

هز الطبيب رأسه، وقال في أسف:

- تأخرتم كثيرًا، حالته صعبة.

- وبماذا تنصح؟

- عد به واجعله يعش الأيام الباقية له في هدوء، ومن دون أن يعلم أن الحياة ستغادره.

●●●

بائع البيض

قالت وهي تمد يدها داخل النملية:

- على الله ألاقي عدد كافي.

هي دائما تضع الشيء وتنسى عدده، وأحيانا يغم عليها مكانه، فتظل تبحث عنه حتى تجده، هذه المرة تعرف طريقه، لكن لا تعرف العدد، رغم أنها وضعته منذ قليل، حينما مدت يدها داخل الكن[١٠] وتناولته من على فرشة التبن المريحة.

- مفيش غير تلاتة.

تنظر إليهم، وتقول بحسرة:

- يكفوه.

وبينما تستدير يصلها صوت ذوبان قطعة الزبد، فتتحرك في ثبات إلي مكان البوتجاز السطحي الموضوع على مصطبة من الحجر الأبيض المرصوص بلا أى مادة لاصقة، تجلس على كرسي حمام صغير، وبسرعة تتقنها تضرب بيضتين ببعضهما فيسيل محتواهما ويسقط على الزبد الذي انتهى تماسكه، وتضرب الثالثة على سن

---

١٠ مكان يبني ويكون بيتا للدخاج

حجر، وتودع ما بها في الطاسة، وبملعقة تبدأ في خفق البيض وبين دقيقة وأخرى تأخذ حبات من الكمون، وهى تقول:

- مش عارفه إيه اللي عاجبه فيه، مش الملح أحسن!

ولما تماسك، أنزلتْ الطاسة وركنتها على نفس المصطبة، وقامتْ بتثاقل ، مرتْ أمام باب الحمام فأغلقته ، ومن هناك على برميل مقلوب تستقر عليه مشنة[11] العيش دست يدها تحت الغطاء وسحبت رغيفا وهمست:

- واحد كفاية، ما هو عادته كده، في كل حاجة واحد وبس !.

وعادت لنفس جلستها، فكرت في أن تخرج وتحضره، وعندما همت في الخروج، تذكرت الطبلية، فراحت تبحث عنها، مر وقت طويل قبل أن تتغلب على النسيان.

زوجها وبينما هي تبحث عن الطبلية كان قد مل في الخارج.

ما كف يوما في جلسته ـ بجوار الجدار القديم ـ عن الشكوى والتأوه، يصاحبانه منذ زمن، وها هو يرى ظله قد تقلص، لدرجة أنه اقترب من الاختفاء، وأصبح صغيرًا، وشمس الشتاء لم تسرقه اليوم، فهي حانية، أثارت الدفء في بدنه، وحينما خرجت زوجته لتنبهه :

١١ تجدل من الخوص أو من كرنيف سباط النخيل

- شمس الشتا سراقة.

ضحك، وضرب كفا بكف، وأخبرها:

- وهو باقي حاجة عشان تسرقه..ما خلاص.

تذكرها، جعله يدرك أن الوقت قد ولىَّ، وأنها لم تنادِ عليه، فطارت عينه إلى باب البيت، وفي صمت كامل تابع كلبًا وهو يقترب منه، دار بعينيه، أمسك بحجر صغير، ملمسه البارد سرب بعض ما فيه لكفة يده، ود لو يبقيه فالبرد يشعره بجسده، لكنه تحت إلحاح الكلب واقترابه من الباب، سحب نفسًا ليستجمع قوته، فوصلته رائحة البيض، صوّب الحجر، فاخطأ الهدف، وأصاب الباب، فنتج دوي جعل الكلب يرتبك، وبدلاً من التراجع، اندفع إلي الداخل.

جعل نظره عند الباب، ينتظر خروج الكلب وخروجها وهي تمسك بعصا أو بعرجون ناشف، لن يكون في مقدوره إلا أن يختبئ تحت كلمات يتقن قولها، لكنه يتمنى لو يتمدد الوقت، حتى يرتب ردًا يسكتها به، فالذي يخشي منه بعد الكلمات، النظرة، وتلك النظرة بالذات، أصبحت بينهما منذ زمن، تولد بعد الكلمات، في مجملها تحمل اللوم، وكأنها امرأة لخصت ما قالته، وما سوف تقوله فيها، هما أنفسهما العينان اللتان جعلتاه يقع في حبها ذات يوم بعيد، يفشل

دائمًا في تحديد الوقت، لكنه يتذكره ويحفظه باليوم الذي وصلت فيه البلدة أول طلمبة إنجليزي تدار باليد، سموها يومها" كرجة"، يومها لم تشده ولم تأسره بالكحل الذي كان ظاهرًا، ولا الاتساع الذي يُسحر، ما شده كان ذلك الحزن الدفين الذي كان مستقرًا داخلهما، وخلاف ذلك لم يوجه إليه نظره.

في قداسة آسرة مضى خلفها من مكان الزحام حول الطلمبة إلى البيت الذي تسكنه، في أثناء المتابعة كان أهم شيء أضيف إلى ملاحظة الحزن تلك المشية التي لا مثيل لها، جسدها لم يكن يتحرك لم يكن يُظهر ما يملك وما يشد ويفتن، كان قطعة واحدة داخل جلباب بيتي واسع، بمنتهى الحرص تابعها، وعلّم البيت بدغل النخيل الكبير المحاط بسور واطئ.

وعندما وصف البيت لأمه، ضربت صدرها بيدها، وأخبرته أنها امرأة تزوجت مرتين ولم تنجب، حاول أن ينفض طيفها من داخله ويتحرر لكنه لم يستطع، فطوى كل شيء عنها وواجه نفسه، وتصالح معها، وركل كل الأصوات وأنصت لقلبه، وحمل عبء اختياره، وسعد به، ومع العشرة حمل عبء لسانها، وها هو يلاحقه:

– طول عمرك ما تعرفش تنشن، ما خلاص راحت عليك، راجل كبر وخرف.

يسكت ويكتفي بلم ساقيه، وبحجر جلبابه يخفي عورته، بينما هـي تكمل:

- صحيح شابت لحاهم وعمر العقل ما جاهم!!

قبل أن يتجاوز العتبة تذكر غضبها حينما يدخل البيت دون أن ينفض الجلباب من غبار علّق به، تراه وهو يشلح الجلباب، وبقوة يضربه في الهواء، تكتم ابتسامة ترغب دائمًا في الانفلات.

ترفض أن تكون على هامش حياته، لذلك درجت على متابعته، وسن قوانين تخصها منذ ذلك اليوم الذي دخل عليها البيت، وحيدًا بلا أهل، لا أم ولا أب، وحيدًا جاء، يومها تندرت وقالت له:

- أنا زى سفينة فيَّا فرح وغربة، وارتحال.

ابتسم وضمها وأيقن أنها امرأة روعتها في صلابة رأيها.

كان يخرج من الصباح إلى دكانه، يبيع ويشتري، يبيع كل شيء، ويشتري البيض فقط، كل شيء يبيعه بالبيض، لدرجة أنه في نهاية الأسبوع كانت تحضر سيارة من المركز، يمتلئ الكرسي الخلفي بأقفاص البيض ، ويظل صوته يتبع السائق حتى يختفي من أمامه ، ينبهه إلى تجنب السرعة.

الأيام جعلت ما بينهما أكثر من أن يطلق عليه عشرة، فهو الذي دخل البيت وهو بناء واطئ، مكون من غرفة واحدة ومجاز[١٢]، وباقي المِلك مسوّر بسور مجدول من البوص، وهو الآن كبر، وزادت غرفه، ورغم ذلك لا يستخدمون إلا مندرة[١٣] واحدة والمجاز يضمهما معا أغلب اليوم.

يجلسان الآن حول طبلية صغيرة، يبدو هو هادئًا، وقبل أن يَجّبُر الزاد[١٤] كما تقول له، يُلقي نظرة على المكونات، سرعان ما يرفع وجهه، ويعانق ألق الحزن على وجهها، ويقول:

- مفيش بصلة ولا حتة جبن قديمة.

- بصل مع بيض!!

وهو يبتسم يرد:

- اعمل أيه في النفس.

تقوم ، وقبل أن تستدير، تصطدم قدمها في الكوب فيندلق الماء، تميل وتلتقطه، يصلها صوت تنفسه، يحترق داخلها قبل أن تغادره لتغرف الماء من البرمة[١٥]، فهي تدرك وتعرف أن الهروب

---

١٢ الصالة في البيوت الريفية

١٣ الحجرة المفروشة وتستخدم للضيوف

١٤ كناية عن الإقبال على الطعام

١٥ إناء يكون فيه الماء

الآن وليس بعد قليل دون أن تنطق هو أفضل حل، ليتحرك الوقت، ويمر الموقف، وتكتفي بمراقبته، تراه يمد نظره، يعانق المشجب الممدود بين مسمارين، يعانقه بقوة من يتعرف على مكان لأول مرة، يعود إليه وداخله يردد ترانيم قديمة كان قد سمعها، ترانيم حزينة، وبداخله شلال نفس الحزن يهدر بكل ما يتذكر ويعرف، فيغمض عينيه، يجد ما يشبهه يجلس على عتبة البيت، بوجه نضر تكاد الدماء أن تفارقه، يميل إليه ويطبع قبلة على رأسه، ثم على خده، وهو يدخل يرى فيه حلم الغد، يسترد نظره من هناك، ويهمس:

- ملعون أنا أزاي أحط ثقتي في الدنيا.

وبينما هي تراقبه، تبلل وجهه بابتسامة حانية، تتقن رسمها، وعبر فراغ ذاكرة مثقوبة تبحث الآن عن مكان البرمة.

●●●

زوج الست بطة

بدت في جلستها كأنها منحوتة وجدت وثبتت في وضع سيدة تبُسُّ الدقيق، في عينيها المسلطتين على الضيف ثمة نار مشتعلة تطوقه بها.

من أجل ردعها سعل جدي وتنحنح، كانت ترضخ للحظات فتطلق عينيها تتجولان في الملقة[١٦] الظاهرة لها ثم تعود إليهما.

في أول تصادم مع وجه جدي، كانت تلوح برأسها في اتجاه المدق المفضي إلي التلة، وربما بينها وبين نفسها رددت الجملة التي لم تغادرها، أبدًا:

- بختي كده، ربنا عطاني راجل بيحب قعاد المصاطب!!.

وتساءل جدي بصوت عال:

- ناوي تعمل إيه؟.

اتسعت عين جدتي وجمدت يديها، وأنصتت:

- هنرحل أنا وبطة.

---

١٦ الأرض الخلاء الممتدة

خارتْ قوى جدتي، وتسرب ما في قبضتيها من دقيق مبسوس، وغشيها السكون، و ظلتْ مسلطة نظراتها عليهما، وأصبح من الصعوبة بمكان عودتها للدقيق لتكمل بسه، ومن دون كلمة منها قامتْ، فسكنتْ ابتسامة محدودة على وجه جدي، ماتت لحظة أن صفدت الباب بقوة، كانت إشارتها كمن دمر جسرًا بعدما عبره كي لا يمر عليه أي فرد يريد اللحاق بها.

كان من أحلام عم سيد أن يعود لبلدته التي هُجر منها على نفس الشاحنة الروسية الصنع التي أقلته إلى محطة مصر، فمن هناك احتار أين يذهب، فعندما مر على أسماء البلاد وجدها قريبة من مدينته، هو كان لا يريد القرب، فالقرب يعني غلبة الحنين الذي قد يدفعه إلى غض الطرف عن الخطر والعودة إلى هناك حيث الذكريات، ووقتها لا يدرى أي نوع من الخطر سوف يكون في انتظاره، وحتى يبتعد نهائيًا طلب بلدًا بعيدًا.

قلب في دفتره فتذكر طبيبًا عمل معه لسنوات في مدينتهم، أقام بينهم ثم عاد بعدها إلى قريتنا في الجنوب، عرض اسم البلد على مسئول التسكين، فلم يجد اعتراضًا.

ومنذ جاء إلينا وهو يداوي الجرحى ويساعد الطبيب في عملياته الصغرى، يعتبر عمله بابًا من أبواب مساعدة الناس، وما يتناوله من أجر يعده مالاً مدخرًا لإعادة بيته المتهدم في مدينته الساحلية.

كنت كل مساء أركب الدابة خلف جدي ونذهب إلى الوحدة الصحية، يقابلنا المدخل الموصد فنطرقه، فإذا لم يفتح لنا أحد، يصرخ جدي باسم سيد محسب، يقبل من طرقة جانبية برأس عار على جسده جلباب بأكمام صغيرة، يقترب فنكتشف أن الجلباب على اللحم!!

يفتح الباب ـ دائما ـ وعلي وجهه علامات ضيق من ضيف غير مرغوب فيه في وقت غير مناسب، لكنه سرعان ما ينزع قناعه، ويرسم ابتسامة التاجر الذي يود بيع بضاعته، ويطلب منا الدخول.

يتقدمنا ونسير خلفه على نفس الطرقة، بانتهائها نجد أنفسنا أمام باب موصد، من ورائه تتسرب الموسيقا وصوت عبد الحليم حافظ يشدو بـ"عاش اللى قال".

يدفع الباب وندخل، وحينما نصل إلى وسط الصالة ينادي على زوجته.

تقبل الست بطة، عليها عباءة بنصف كم، تُظهر عنقها، وجزءًا من صدرها المكتنز، شعثاء بشعر قصير، وأصابع يدها مشغولة بإغلاق طوق القميص.

عندما شافها جدي أول مرة، نظر إلى سيد وابتسم، فما كان من الأخير إلا أن لكز جدي، وبادله الابتسام.

كل شيء في البيت مرتب بطريقة جيدة، وواضح بفعل إضاءة قوية، مصدرها لمبتان مشنوقتان بواسطة سلك مفتول من فرعين، تظهر أشياء مكومة في أحد الأركان، عليها صُرَر كثيرة، تجاور صندوقًا خشبيًا كبيرًا، مغلقًا بقفل، امتدت يد الست بطة إليه، وأخرجت منه صينية شاي وكوبين، وبعد أن أوصدته منحت زوجها نظرة غضب، وعاجلته قائلة:

- يعنى ناويين نروح بكرة!!

قالت جملتها، ومضت بدون أن تنتظر رده، الذي وجهه لجدي:

- عارف يا حج من يوم العبور وأنا لميت كل حاجتي اللي جيت بيها هنا، علشان عارف أنى لازم هرجع، مش كفاية كل السنين اللي فاتت، وإحنا أغراب في بلاد الناس.

جدي كان لا يريد أن يسمع حكاية سمعها كثيرًا، لاعتماده على مقولة: يكفينا لعق الملح مرة واحدة، لذلك شدني وأجلسني أمامه، وهو يقول:

- ربنا ينولك اللي في بالك.

تسلّمَ سيد محسب خدي ونظر في الجرح، وحينما انتهى من عملية الفحص، قال:

- بسيطة.

كلمته يقولها في كل الحالات، ابتداءً من قرص العقرب، وانتهاءً بالطلق الناري.

الجهة التي وجهتُ إليها جعلتني أنظر إلى مكونات أخرى لم تُجمع، مثل الأنتريه المذهب، والمنضدة الموضوع عليها تلفزيون يعمل بالكهرباء التي يمده بها المولد الكهربائي.

الست بطة لا تخجل من طلب أي شيء من أي أحد، وطلباتها كانت تدور حول ما يؤكل ويشرب، مثل قطع الجبن القريش، والبتَّاو[١٧] والمش والبامية الجافة المنظومة بالخيط وجلود الأضاحي في العيد الكبير بحجة شراء ما يلزم عمل زوجها من مراهم وشاش.

جدتي كانت تتعجب من حلاوة صوتها الذي كان يفوق صوتها هي، كانت تخشى أن تحفظ أغاني الحجيج، فتزاحمها على أبواب الأعيان فتفقد مورد الرزق الوحيد الذي بقى لنا بعد جلوس جدي في البيت.

جدي طول فترة جلوسه وسجائره موضوعة بجواره في متناول يده ويد سيد محسب، وهما يتكلمان في موضوعات كثيرة.

---

١٧ نوع من الخبز ينتشر في صعيد مصر

وذات مرة مدحها أمام جدتي فنهرته وطلبت منه السكوت، وأخذت تذكره بأنها أول من مشت في البلد ويدها مُشَبَكة بيد زوجها، وأنها تجلس مع الرجال دون أن تضع شيئًا على شعرها.

فضَّل جدي ألا يرد وتركها تسرد ما فعلته المرأة منذ أن وطأت بقدميها تراب البلدة، ولما انتهت أراد أن يبسط الأمر لها، كي يبعد كل الهواجس عن نفسها، فقال إن المرأة منذ أن جاءت وهى تساعد زوجها ولم ير منها شيئًا سيئًا، حتى وإن فعلت فعلاً لا يروق لأهل البلدة، فهم في نهاية الأمر ينظرون إلى ما تفعله كونه تقليدًا جاءت به من بلدها، وإن حدث وقلدتها إحدى النساء فهذا لن يغير من الأمر أي شيء، فقط سوف يقولون:

- كانت في جرة وطلعت لبره.

وضحك.

عدم وجود جدتى، جعلني أعلق عيني على سيد محسب، فأري منه الوجه الأمرد النضر والمشرق، المحتشدة فيه الحياة، والبالطو الرمادي المحبوك حول جسده الممتلئ والذي لم يكن يغادره، دائمًا فوق جسده، وكان في استطاعتي أن ألمح الندبة الكبيرة البارزة والتي تقترب من حبة العنب والموجودة بالقرب من زاوية فمه اليمين.

قال عنها عم سيد إنه في إحدى المرات أراد أن يزيلها، فاعترضت الست بطة، وألحت حتى يبقي عليها، لأنها تسليها أثناء نومه معها!

قدمت جدتي الشاي دون أن تتكلم، وهما التزما الصمت، سرعان ما قطعته هي بتوجيه سؤال لعم سيد:

- ليه عاوز تمشي؟.

لم تنتظر رده، وبلسان فصيح قالت له إن أهل البلدة تعودوا عليه، وأصبح واحدًا منهم، هو لم يتكلم واكتفى بالابتسام فأكملت هي:

- عندك حق مهما تغرب الواحد بيحن للأرض اللي شافت مولده، واللي فيها عضام جدوده، وأنت ما شاء الله هترجع بشيء وشويات.

فقال سيد:

- هرجع بالمعروف يا حاجة وده كفاية.

سكتت وراحت تكمل بس الدقيق، وهي ممتلئة بكل أسباب الغضب.

بعدما فرغا من تناول الشاي، ذهب الحديث بالرجلين إلي الحرب ووقف إطلاق النار.

كنت أدرك طبيعة الكلمات التي يتبادلانها، فجدي كان يحدثني كثيرًا عن الحرب، وعن إسرائيل وعن النكسة وعن حبيبه جمال، وحينما كان يتكلم عن السادات، كان يعبره.

تهلل وجه عم سيد فجأة وقال لجدي إنه سيترك له الراديو الفليبس، وشيئًا آخر.

وأخذ الرجل جلسته ومضى.

وعندما جلست جدتي لتنهي ما كانت تقوم به كان وجهها محايدًا، ولم يكن بإمكاني معرفة ما إذا كان قد تأثرت أو لم تعبأ بما سمعت، لذلك ظل وجهها ثابتًا، لا يشي بما يدور بداخلها، كان بحق مرآة ران عليها البخار.

فتح جدي باب خزانته وتكلم عن الرجل، بينما جدتي سكتت، كان سكونها يشبه لحد كبير سكون البراح قبل هبوب العاصفة لتعريته من كل شيء خف حمله.

وفي الجزء المكشوف من البيت، جلستْ جدتي إلى الكانون، وبينما هي منهمكة في إنضاج البسيسة[١٨] فتح جدي باب خزانته مرة أخرى وتكلم عن الرجل وهي ساكته، كان سكونها يشبه لحد كبير سكون البراح قبل هبوب العاصفة لتعريته من كل شيء خف

---

١٨ أكلة تتكون من خلط الدقيق المبسوس بالماء والسمن واللبن

حمله، واستمر الوضع ونحن جلوس حول الطبلية والبخار يتصاعد من الطبق الزنك الكبير الذي صبت فيه البسيسة، وحينما بدأنا الأكل كانت تغرف من الزبدية ملعقة من الزبد وتضعها أمام جدي ثم أمامي، فينتشر ويطفو اللون الكريمي برغوته على وجه البسيسة، تلك الهدايا التي تمنحها جدتي، كان جدي يخطفها حتى يحوّل جمود وجهها، حاول وحينما فشل سكت، وهي ترفع الطبلية قالت له:

- إياك تروح لمقابلة البعيد، وتشوف مقصوفة الرقبة.

ابتسم جدي، وأنا كنت هناك أراقب يد الست بطة وهي تلعب بتلك الحَسَنة[١٩] التي على خدها

●●●

١٩ الشامة

الموت

أحصينا ما بقي في البيت من مال بعد مصاريف جنازة والدي، وجدنا القليل الذي لا يكفي متطلبات المعيشة، ولما كانت إجراءات صرف المعاش تسير بخطوات السلحفاة، ظهر الحل في كتبه ، خاطرة عابرة، ألحت علي البكري، فقالها :

- ماذا تساوي كتبه، إذا لم يكن هو بجوارها!

وما هي إلا ساعات ووجدت نفسي أسير في المدينة، فوق رأسي كرتونة مملوءة بكتبه، بغرض بيعها لإحدى المكتبات المتخصصة في بيع الكتب القديمة.

كانت وصية أمي قبل الخروج ألا أخدع بمظهر التاجر الذي سوف يساوم، بطريقة يُظهر من خلالها أن القراءة أصبحت عادة قديمة وقد دخلت المتحف، ولم يعد الناس يقبلون عليها ، فقط يعرفها الباحث الذي يريد أن ينجز بحثاً ما، وأن غذاء العقول تراجع وأصبح من الترف، في ظل قسوة لقمة العيش.

وما حسبته وجدته...

بدأ الرجل بالتقليب بيدين مضطربتين وبعينين منتبهتين، طارداً ذلك الهدوء الذي لمحته فور دخولي ، ليحل محله لهفة في حث الرؤية نحو التعلق بكل كتاب، لا أعرف كيف غلت الدماء الساكنة في عروقي والتي ظننتها كالماء، وبدلاً من إرسال النظرات المحايدة إلى يديه، وجدتني مدفوعة لإبعادهما، وأقول بحزم لا يقبل مراجعة:

–لن أبيع.

تجنب الرجل الذي يتقن فن الفصال أن يظهر لي غضبه، وسارع إلي التصريح بعرضه الذي لم أكن لأرفضه تحت إلحاح نداء البطون الخاوية ، قال وعيناه تجوبان رفوف المكتبة:

– من أجل خاطرك، أنا سوف أزيد فوق ما قلته لك بمقدار الربع.

الكلمات دوت بداخلي، فقلت :

– صحيح؟

أشار إلى عينيه بينما سيجارته مرشوقة بين شفتيه، ويداه تخرجان ما في بطن الكرتونة .

أعترف لكم أنني حتى الآن لا أستطيع المرور على المكتبة؛ خوفًا من أن تلاحقني اللحظات التي دخلت فيها البيت والمبلغ

في جيبي، لتأخذني قدماي إلى المكتبة، يومها بدون وعي مني وجدتني مدفوعة إلى درج المكتب لأفتحه، ومددت يدي المرتعشة وسحبت الورقة المدون فيها آخر ما كتب.

كان يوماً لا ينسي، أنا أقصد تلك الجملة حتى لا يتكون لديكم مسبقًا ذلك الشعور الذي قد يدفعكم إلى تصور أنني أبالغ ، فأقع أسيرة لكل ما يصلكم ، فافقد وقوفكم معي على نفس الشاطئ.

نعم ... نعم .... عليّ الآن أن أواصل الحديث الذي انقطع بمحاولة توضح ما سوف أقول.

فأنا كثيرًا ما حاولت وضع التصور الصحيح لذلك المشهد، ودائمًا أفشل، فلا أجد إلا كلماته أصدق تصور لتلك الحال، فأسترجعت بعضها، كانت كالحجر الذي سقط من مكان شاهق على رأسي، في البداية أحدث ما أنتم فيه الآن وأنتم تقاومون دموعكم، هكذا كنتُ أنا، ومازلتُ في الحلبة أكمل رقصة بدأت، الزمان لم يكن سخيًا معي ليمنحني نعمة النسيان، ولنقل أنني لم أكن من المحظوظين، وفي الأساس هل هناك كلمة تسمى النسيان!!

صدقوني الإنسان العادي يموت مرّة واحدة، أما من يظن أنه عظيم من عظماء الزمان فأنه يموت مرتين ، مرّة بالموت الفعلي،

والـذي اختلـف فيـه النـاس، أهـو مـوت الجسـد ؟ أم مـوت جذع المخ؟ وأنـا أري أنـه مـادام فقـد القـدرة علـي الحيـاة فهـو مـن الأمـوات، فالحيـاة بغيـر قـدرة مـوت محقـق، وهـذه واحـدة أمـا الثانيـة فتتـم بمحـو أثـر مـا فعـل...

أبي كان هذا الرجل.

●●●

اشتهاء

ماذا لو تكلمت عن أحلامي معك، عن اللقاء، وارتشاف الشهد منك، والرحيل لعمق روحك، والبقاء هناك حتى آخر العمر، ماذا لو تكلمت عن شهيق جسدي وقت حضورك، وصلاتي الخاصة التي وجدت معك، ماذا لو تكلمت عن كل ما يدور داخلك من أفكار، ومن أسئلة، ماذا لو تكلمت عن عطرك الذي يصلني دون أن أحضنك، وماذا وماذا ..حتى الصمت ومحاولة الهروب من الإجابة عن أسئلة لي هي حياة لو تعلمين.أتدركين كم يكون صوت الروح وهي تغرق في نور وجد من أجلها، تستدعيه فيكون قريبًا، وقتها للنور صوت، وللروح صلاة، ولي أنا منك الكثير، لا يبتعد جله، ولا يغيب، يظل داخلي، لا أتخلى عنه، أقيمه وأصلب عوده ليكبر، وأقول لِمَ أنجب منك حتى الآن تلك الكلمة السر؟ وذلك الشهد المستديم ، تعرفين هناك كلمة غائبة عنا، نقتلها عن عمد رغم أنها تعيش داخل كل واحد منا، تحتل زاوية تخصها، تطل برأسها أحيانًا فتحوّل لحظاتي لجمر، تعود وتمنح نفسها حق الحياة في سؤال:

- لم لا تحتويني؟.

أقول لها:

- خبريني من أنت.

تقول:

- انظر في عيني في لهفتي في نسق التكوين والمعراج لنور تحبه، دقق النظر.

أقترب منها، أجدها كما لو كانت الحياة بكل ما فيها، وكما لو كنت بحارًا وجد في بحر يخصه، أقول:

- إنك هي: اللذة".

تبتسم، وتقول:

- أنا الغائبة في متن حلم، أو في ثنايا جسد، أو في قصيدة بها أثرك، أو جملة تخرج في غفلة منك، لكني أظل في النهاية حاضرة مع كل لقاء وحوار، لي مدينة لا يعرفها إلا الناسك الذي يقيم صلاة خاصة به، من يرتقبني على نواصي الوقت، ويجلس قبالتي في صبر نحات ليفك أسر اللحظة، ليصنع منها واحة تليق به وبمن يرتقبه، أكون قدسية وقت أن يتطلع في الوجه، ويغيب مع امتزاج الإشراق بالنور، ومع اكتناز الحياة على وجه يريده، ومع تفرد الشفاه حينما تردد كلمة لا يريد أن تكون، فأنا المدينة التي تضج بالهوس والجنون والحلم.

أصمت قليلاً، وأعود لبناء وجد ككيان، وقصيدة، وابتسامة خجلة تطل من عينين وديعتين من خلف نظارة رقيقة، تؤطر مساحة لها قدسية كما لو كانت كتابًا نبت من متن قديم به سحر، ومدينة اللذة وتخومها تحيط بي، تعزف لحنا خالدًا منذ أن خُلق الإنسان، يقول الفقد مرض العابر لو لم تظله اللحظة، وتمنحه ما فيها، واللحظة جزء من وقت دائما يأتي بقدر، أبتسم، وأرنو للكيان وهو تحت هالة من النور المستقر، الممتزج بنور أزلي، له وعود البقاء، وملمس الماس، ورسوخ جبال تطل على مدينة عمّرها البشر منذ آلاف السنين، يصبح المدى مسكونًا به، وبكل مفرداته، وبكل ظاهر منه، وبكل ما يوصفه، وما يحدده، وأنا ومن حولي تخوم مدينة اللذة، في معية اللحظة، تنمو مفردات، كلمات، ولغات لا أبجدية لها، تحس، وتفرد لنفسها نسقًا يليق بها، لا تفنى ولا ترحل، ولا تموت، لغات حية ولدت من ألق الكيان، لا يتخلى عن حرف ولا عن ذرة من نور، فهو في محيطه يبدو صاعدًا حتى استقرار الصوت الذي توجده تلك المدينة الساحرة، وتلك الأيقونة التي أحاط بها شعاع وحيد منفلت من عين لا تريد أن ترمش حتى لا يقع منها خيط الحياة، فالصلاة هناك تستحيل لدوام. المسافة التي تفصل الكيان عني، هي جزء من مدينة اللذة، تولد فيها الكثير من الخيالات ومن الحقائق ومن الفتنة، ومن ممرات الولوج والركض، والتنفس، والغياب، والحضور، والاستقواء،

والضغف، والموت، والخلود، والعودة، والكتابة، والترنيم، والكثير من الخمر والنبيذ، والدواء، عالم آخر يسكن تلك المساحة التي هي جزء من مدينة اللذة، التي تصر على محوها، وعلى هضم كل ما سلف، لتكون في أبهى حلّةُ وأجمل هيئة، فتفرض الرؤية والنسق، والامتداد، ويصبح ما وجد على حافتها طعاما لنا، يطعمنا، ويقوينا، ويوجد حياة تخصنا، لن ولم يتجاوزها الوقت، لأنها خالدة بخلود الأثر.

●●●

زحف النمل

أخبرت الطبيب أن النمل الذي أسمع دبيبه في رأسي يعتقد أن رأسي شجرة!

قبل أن أبوح بكلماتي كنت أحاول أن أقتل فكرة الذهاب، فليس معنى أني لا أنام جيدًا أو أن هناك الكثير من الكوابيس التي تزورني أني في حاجة لزيارة الطبيب، فالكثير من الوصفات التي أشار عليّ بها الكثير من الأصدقاء، لم تعدني إلى نفس حالة الإنسان النشيط الذي لا يدخر جهدًا في العمل ولا في البيت ولا في الشارع، الجميع يرونني وأنا أجدّ في المسير، دائما أحمل حقيبة جلدية، أضع فيها دفتري وكتابًا أتصفحه، ولفافة بها أنصاف أرغفة العيش محشوة بخيرات البيت، كل يوم حسب الموجود، ربما يستوقفني البعض من أجل حل مشكلة ما أو أن يأخذ مني أحدهم موعدًا لكتابة عقد بيع أو شراء، أو يدعونني لحضور عقيقة مولود رزق به، وفي بعض الأوقات أجدني أجلس إلى عجوز تربطه بجدى صداقة قديمة، وبسعادة طفل رد إلى يد أمه في السوق، أنصت لتاريخهما المشترك.

ظلت طقوسي كما هي حتى دخلت عليَّ ذات يوم امرأة في مقر عملي، تحمل بين يديها طفلاً في الخامسة من عمره، لا مقدرة له على الحركة، نظرتُ إلى الصغير، فأيقنتُ أن ما فيه هو سبب من أسباب الولادة الخطأ، أكدتْ لي السيدة ما ذهبتُ إليه، وقالت بلسان سليم:

-عنده ضمور في المخ (ونظرتْ إلى صغيرها، وتابعتْ) بسبب زنقة في الولادة.

نظرتُ إليها، كانت متوسطة الطول، ممتلئة الجسد، كل شيء فيها يدل على أنها ليست من أبناء بلدنا، فجمالها لافت، وفتنته تظهرها بعدة طرق منها طريقة الحديث، وحركة الشفاه، وثبات النظرة، ونقاء البشرة، وتراكم الحزن، كانت إحدى روافده ماثلة أمامي.. ومن تتابع الحديث عرفت أنها نزحت من الشمال للجنوب بعدما تزوجت، وهي وحدها من تحمل عبء مولودها، تتردد به على عيادات التأمين، وعلى المستشفى العام حينما يصاب بانتكاسة، تحفظ الكثير من أسماء الأدوية والبدائل لها.

أصبحتُ مع الأيام أترقب حضورها لتصرف الأدوية التي تقرر لولدها، وكلما تأخرتْ أصبح كمن وضع على مرجل، ذلك الاهتمام تلقفته الألسنة التي تشتاق لتسلية، فنسجت حولي القصص، والحكايات، وصل بعضها إلى بيتي، كنت وقتها قد

أيقنت أن التغيير الذي أعيشه مفارقا الاعتياد هو حلقة ستتصل بأخرى، وكأني أكشف الغيب، فقد جاءت ذات يوم من غير ولدها، كانت أكثر حزنًا، جلستْ في الاستراحة يحيطها سياج من السكون، حقيبة يدها أصبحت صغيرة، فالأخرى كانت كبيرة تتسع للحفاظات وللأدوية، ولأشياء أخرى، وددت لو قمت وتكلمت معها لكن خوفي من رقابة العيون، وقفت حائلاً بيني وبين مخاطبتها.

ظل طيفها معي، كنتُ أراها في سوق القرية تشتري من البقالة ما يلزمها، أو تقف أمام المخبز لتحصل على حصتها اليومية من الخبز، أو في وسيلة المواصلات التي أستقلها في مشاويري للمدينة، وكنت مع هذا الوجود المصاحب لي، أكتب الكثير عنها في دفتري، كأنثى غير منسوبة لي في قيدي العائلي.

اتساع تلك الحياة دفعني إلى أن أرسمها في دفتري، وعندما حاولت أن أكتب اسمها لم أنجح، فأنا لم أهتم به، لأن هذا الفعل لم يكن مبررًا لو قمت به، لذلك أصبحت في جلساتي أسأل عمن تزوج من أبناء البلدة من قاهرية، أو عمن رزق بمولود معاق، أو عمن مات لهم ولد مؤخرًا، كنت كمن يبحث عن إبرة في كوم من القش، وحدي والحيرة لأيام، تحاصرني فأغرق في سرد ما كان وما وجد، حتى أهملت ما كنت أقوم به من طقوس يومية، وفي مساء خريفي، لمحتها من خلف زجاج سيارة نصف نقل، كانت

نظراتها تحمل عتابًا ما، خيل لي أن الزجاج الفاصل يبكي على رحيلها، والحقائب الملقاة في الخلف فوق عزالها، تهم بأن تفتح نفسها لتُريني ملابسها الزاهية، وما بقي من ملابس صغيرها، وأنا في مكاني كنت عاجزًا على أن ألوح لها.

لشهور طويلة وأنا أستحضرها في كل مكان، في البيت، وفي العمل، وفي تجوالي الذي امتدت مساحته لأضيف إليها المقابر، والكثير من الأحاديث للقبور الصغيرة التي تضم الأطفال، كان داخلي ينطق بأكثر مما يرغب عقلي، وكل هذا لم يكن يغادرني، كان يتمدد أكثر وأكثر بداخلي، ولم أكن أسأل نفسي عن جدوى التعلق بطيف غادر البلدة بعدما أودع حزنه فيها، لكن في لحظة تمثل لي فيها الوقت كطفل شقي، دخل عليّ كاتب الصحة وبين يديه شهادة وفاة الطفل، لم تكن منصفة حينما أوصت بأن تسلم لي شهادة وفاته، سكبت الدموع بغزارة بين يدي الرجل الذي لم يقص ما حدث لأحد، وحاولت أن أنظر للوثيقة وأنا بين ثقل ما تركته: اسمها كاملاً، واسم مولودها، واسم زوجها، وسبب الوفاة.

فيما بعد، كلما نظرت إلى السبب أدركتً أني كنت معلقًا في الهواء، ولأيام فقدت الثقة في كل شيء، وتحول ما حدث لدبيب تتردد خطواته كزحف النمل في رأسي، ولم يتسنَ لي أن أرتب ما سوف يكون، غير أني خضعت للوهن، ولم أجد قدرة كافية

لتجاوز الثغرات التي أوجدتها بصمتي، فكان لزاما عليَّ أن أزور الطبيب.

كان الطبيب سخيًا معي وهو يسمع ما قلت بعد أن وصفت له حال رأسي، فتكلم وأخبرني أني تورطت في الألم، وعليّ أن أخرج نفسي من تلك الدوامة، فخرجت من عنده، وبين يديّ تذكرة الأدوية التي كتبها، حينما دخلت إلى الصيدلية، نظر الصيدلي الذي تناول مني الوصفة وابتسم، وناولني الورقة، قرأت:

-احرق شهادة الطفل.

أخرجت شهادة الميلاد، وجرت عيناي على الكلمات المدونة، وقرأت:

«مات مختنقا...»

●●●

الفهرس

الصفحة

إهداء:.. ٥

صاحب العلة:................................ ٧

يخرج عاريا:.................................. ١٣

قسوة:... ١٩

كائن ليلي:.................................... ٢٣

لا أحد يكتب الابتسامة:................... ٣١

وجوه تحلم برعشة فرح:................... ٣٥

حذاء قديم وحزن:.......................... ٣٩

العابر:.. ٤٣

عيون مفتوحة للداخل:..................... ٤٧

سخرة:.. ٥١

بخاخ أبيض:................................ ٥٥

سيل:.. ٦٣

العالم الآخر:................................ ٦٩

بائع الفينو:.................................. ٧٣

مانيكان:...................................... ٧٧

عاشق المسلسلات:.......................... ٨١

وحدها تمشي:........................ ٨٧
لعلوعة:............................... ٩٣
رعشة:................................. ٩٧
الخلبوص:............................. ٩٩
الفخاخ تفقد صبرها:................... ١٠٥
الغريب:............................... ١١١
وصية:................................. ١١٥
بهجت:................................ ١٢١
تلصص:............................... ١٢٧
خداع:................................ ١٣٣
النص المؤرق:........................ ١٣٧
رائخة ثقيلة:.......................... ١٤١
بائع البيض:.......................... ١٤٧
زوج الست بطة:....................... ١٥٥
الموت:............................... ١٦٥
اشتهاء:.............................. ١٦٩
زحف النمل:......................... ١٧٣

مصطفي البلكي

- قاص وروائي مصري ـ عضو اتحاد الكتاب
- أسيوط ـ مركز الفتح ـ عرب الأطاولة
- أخصائي كيميائي بالهيئة العامة للتامين الصحي فرع أسيوط
- **الأعمال**
  - الجمل هام للنبي.. قصص قصيرة.. مركز الحضارة
  - تل الفواخير.. رواية.. الهيئة العامة لقصور الثقافة
  - رمسيس الثاني البناء الأعظم روايات الهلال
  - بياع الملاح.. . رواية.. .. مركز الحضارة
  - بينوزيم.. الكاهن الأكبر.. . روايات الهلال
  - طوق من مسد رواية سلسلة إبداعات الهيئة العامة لقصور الثقافة
  - الإضراب الأول روايات الهلال التاريخية
  - ساوتى رواية روايات الهلال التاريخية
  - صور مؤجلة للفرجة قصص دار شرقيات

- دوامات الصمت والتراب قصور الثقافة سلسلة ابداعات الثورة
- سيرة الناطورى رواية مجموعة النيل العربية
- أصوات الجرار القديمة قصص دار سما
- البحث عن السعادة كتاب الهلال للاولاد والبنات
- نفيسة البيضا رواية دار سما
- قارئة الأرواح رواية دار سما
- ممرات الفتنة رواية الهيئة العامة للكتاب
- جلنارة حمراء دار سما

• الجوائز

- أفضل رواية من الهيئة العامة لقصور الثقافة
- جائزة القصة من جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين الثقافية عام ٢٠٠٦، وكذلك جائزة الرواية عام
- جائزة نادي القصة في الرواية
- جائزة القصة من جمعية الرواد بأسيوط
- جائزة إحسان عبدا لقدوس في الرواية

- جائـزة أدب الطفـل مـن جمعيـة أصدقـاء أحمـد بهـاء الديـن ٢٠٠٨
- جائزة القصير في الإبداع القصصي ٢٠١٠
- جائزة اتحاد الكتاب فى الرواية ٢٠١٠
- جائزة ساقية الصاوى فى الرواية ٢٠١٢
- جائزة الروائي الكبير بهاء طاهر في الرواية ٢٠١٧

●●●

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر